([illegible])

[illegible]

محاضرات (تاريخ الأمم الإسلامية)

محمد بك الخضري

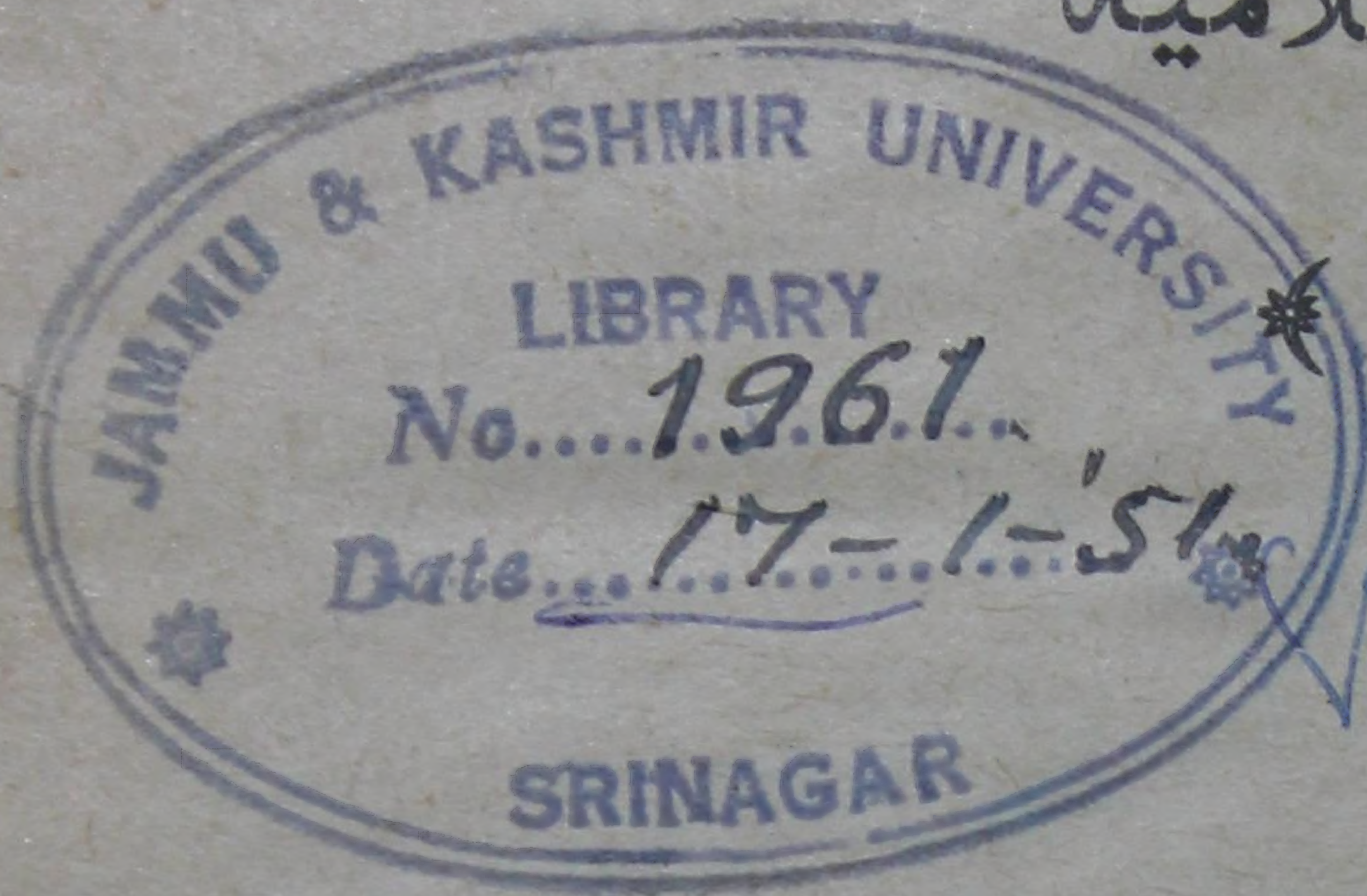
ضرات

Cat 10/4

محاضرات

تاريخ الامم الاسلامية

الدولة العباسية



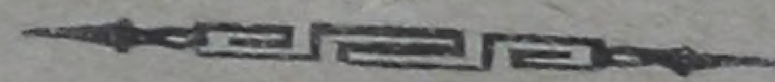
لمؤلفه

المرحوم محمد بك الخضرى

أستاذ تاريخ الامم الاسلامية بالجامعة المصرية

ووكيل مدرسة القضاء الشرعى سابقا





طبعة ثالثة نمرة ١٣٣

طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية

على نفقة أصحابها

عيسى البابى الحلبى وشركاه

بجوار سيدنا الحسين بمصر

سنة ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م

الى صاحب السمو الأمير احمد فؤاد بن اسماعيل (1)

مولاى

ان ما تفضلت به من كلماتك المشجعة حدا بى الى السير قُدُما فى اظهار ما ألقيه من محاضرات التاريخ بالجامعة المصرية وأرجو أن أكون قد وفقت لتحقيق شئ من رغباتكم العالية في كتابة التاريخ الاسلامى واذا ساعدنى حسن حظى فحازت هذه المجموعة رضا سموكم شجعنى ذلك على اظهار ما يليها من تاريخ مصر الذى كان جدكم ساكن الجنان تغمده الله برحمته واسطة العقد بين مؤسسى دوله الاسلامية .

ولكتابى هذا حق الفخر بظهوره فى عهد محب العلم ومشيد أركانه صاحب العظمة السلطان حسين كامل الاول سلطان مصر سدد الله خطاه وأناله رغباته فى أمته ؟

محمد الخضرى

(1) اعتلى سموه عرش مصر فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ هـ — ٩ اكتوبر سنة ١٩١٧ ونودى به سلطانا بعنوان صاحب العظمة السلطان فؤاد الاول وقد آثرنا العنوان الذي رسمناه وقت أن طبع الكتاب للمرة الاولى ليعلم قراء التاريخ ان حب سموه للعلم وهو أمير كحب عظمته للعلم وهو سلطان . أدام الله له التوفيق وسدد خطاه وأقر عينه بولى عهده آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله فانى أقدم للمشتغلين بالتاريخ مجموعة محاضراتى الثانية فى تاريخ الامم الاسلامية وهى تنتظم تاريخ الدولة العباسية السياسى فى المشرق. والتاريخ العباسى جزء عظيم من تاريخ المسلمين يبتدئ من سنة ١٣٢ الى سنة ٦٥٦ أى ٥٢٤ سنة وقد بقى بيتهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر الى سنة ٩٢٣ ولكنى لم أسر معهم من العراق الى مصر وأبقيت تصاريف أحوالهم هناك الى تاريخ مصر لما بين التاريخين من الارتباط وقد بذلت جهدى فى تصوير حالهم السياسى من مبتدأ خلافتهم على أيدى دعاتهم بخراسان والعراق الى منتهاها علي يد هولا كو خان المغولى حفيد جنكيزخان. بينت تلك الحال فى أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف مع توضيح الاسباب التى رفعت هذه الدولة الى الذروة العليا من سعة الملك ونفوذ الكلمة والاسباب التى نزلت بها الى الحضيض من ضيق رقعة الملك وسقوط الهيبة وضعف النفوذ وقد ختمت الحديث عنها بفصل فيه اجمال تلك الاسباب

وتركت تاريخها العلمى لما رأيت من جعل ذلك فى محاضرات خاصة تنتظم تاريخ الاسلام العلمى كله لارتباط بعضه ببعض ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة

بنى العباس السياسية فقد كانت الدولة العباسية فى عهد آل سلجوق فى حال ضعف سياسى شديد لأن الخلفاء لم يكن لهم اذ ذاك الا الاسم ومع ذلك فقد كانت الحركة العلمية قوية

وانى أعد قراء كتابى هـذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية فى البلاد الاسلامية وأرجو من الله التوفيق

وقد كانت الاقاليم الاسلامية فى عهد الدولة العباسية ميدانا عظيما للافراد الذين ينتمون الى بيوت قديمة المجد والافراد العصاميين يتسابقون الى التغلب عليها من بلاد الاندلس غربا الى بلاد الترك والهند شرقا فكم من دول قامت وعظمت مدنيتها ثم انتهت بغلبة غيرها عليها ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركا اسم الخلافة لبنى العباس ومنهم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعا كالدولة الاموية بالاندلس والادريسية بالمغرب الاقصى والفاطمية بأفريقية ومصر والزيدية بطبرستان فرأيت من الواجب أن أذكر مع كل خليفة عباسى من كان فى عصره متغلبا على أى اقليم من الاقاليم الاسلامية واذا ابتدأت دولة فى عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التى قامت فيها وثبت ملوكها وقصدت بذلك أن تكون الرقعة الاسلامية كلها واضحة الصورة فى جميع العصور وقد ألممت فى أكثر الاحيان بذكر الملوك المعاصرين فى أوروبا ولا سيما الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية في عهد الدولة العباسية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا . ومما عنيت به أحوال البيت العلوى الذى ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم الى سقوطها وقد كانوا من أكبر الاسباب فى ضعف العباسيين وجراة المخالفين لهم على

خلافهم فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث وهى الزيدية والامامية الاثنا عشرية والامامية الاسماعلية وما قامت به كل طائفة من الرجة فى أنحاء العالم الاسلامى

وانى أظن أن هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الاسلامى يشعرون بها وأرجو من الله التوفيق لاتمام سلسلة هذا التاريخ انه نعم المعين

الدولة العباسية

البيت العباسى

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقى عقبه من كثير من أولاده ولكن العدد الاكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبى طالب فقد ملأ بنوهما السهول والحزون من الاقاليم الاسلامية من أقصى حجر فى بلاد المغرب الى بلاد ما وراء النهر فى أواسط آسيا

ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الامم الاسلامية ونحن الآن شارعون في تاريخ البيت الاول

العباس بن عبد المطلب

أمه نُتَيلة بنت جناب بن كليب من النَّمِر بن قاسط احدى قبائل ربيعة بن نزار . ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين فهو أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين

كان العباس من سادات بنى هاشم وعقلائهم وكان صديقا وفيا لأبى سفيان صخر بن حرب . لما جاء الاسلام كان من المخلصين لرسول الله ﷺ وان لم يظهر متابعته . وكان هو الذي تولى احكام الأمر لرسول الله مع الانصار حين الهجرة فقد قال لهم فى ليلة البيعة يامعشر الخزرج انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليه ومحمد من أعز الناس فى عشيرته يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فانها سترميكم عن قوس واحدة فارتؤا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع فان أحسن الحديث أصدقه — وأخرى صفوا الى الحرب كيف تقاتلون عدوكم قال فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال نحن والله أهل الحرب غذينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر نرمى بالنبل حتى تفنى ثم نطاعن بالرماح حتى تكسر ثم نمشى بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الاعجل منا أو من عدونا . فقال العباس أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع . فالوا نعم شاملة — وقال البراء بن معرور قد سمعنا ماقلت انا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ . وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ثم دعاهم الى الله ورغبهم فى الاسلام وذكر الذى اجتمعوا له فأجاب البراء بن معرور بالايمان والتصديق فبايعهم رسول الله ﷺ على ذلك والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول الله ﷺ يؤكد له البيعة تلك الليله على الانصار ولما خرجت قريش الى بدر أخرج العباس وبنو أخيه اليها كرها ولذلك

قال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه يوم بدر من لقى منكم العباس وطالبا وعقيلا ونوفلا وأبا سفيان فلا تقتلوهم فانهم أخرجوا مكرهين . وكان العباس فى جلة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة وكان مقامه بها أنه كان لا يُغَبى على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا يكون الا كتب به اليه وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون اليه وكان لهم عونا على اسلامهم ولقد كان يطلب أن يقدم على النبى ﷺ فكتب اليه عليه السلام ان مقامكم مجاهد حسن فأقام بأمر رسول الله ﷺ . وهاجر الى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة وكان سببا فى نجاة أبى سفيان وفى تشريفه بقول رسول الله ﷺ من دخل دار أبى سفيان فهو آمن وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج الى المدينة فأقام بها

وكان رسول الله ﷺ يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الجمعة لاربع عشرة خلت من رجب سنة ٣٢ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وبه كان يكنى وعبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة أمهم جميعاً لُبابة بنت الحارث بن حزن من بنى هلال بن عامر من قيس عيلان وفى ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله بن يزيد الهلالى

ما ولدت نجيبة من فحل بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل . وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب وعقب العباس من سواهم ولاسيما من عبد الله فانه هو الذى انتشر منه عقب العباس وهو جد الخلفاء العباسيين

عبد الله بن العباس

هو ثانى ولد العباس بن عبد المطلب ولد قبل الهجرة بسنتين فكانت سنه حين توفى رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال اللهم علمه التأويل فكان رضى الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين على ما أوتيه من لسان طلق ذلق غواص على موضع الحجة وكان عمر رضى الله عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة فى مجلس شوراه الخاص ويستفتيه فى كثير من المسائل على صغر سنه . وولاه عثمان الموسم سنة ٣٥ من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم ولما بويع على رضى الله عنه بالخلافة كان له عضدا ونصيرا فى حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال انه انحرف عنه فى أواخر أيامه وترك البصرة ورحل الى مكة فأقام بالطائف وقيل ان ذلك كان بعد مقتل على

ظل ابن عباس مقيما فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد اليه كثيرا كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم وكانت وفاته سنة ٦٨ وعبد الله هو الذى نما من نسله البيت العباسى لأن اخوته لم يكن لهم نسل باق وعقب عبد الله الذى نما انما هو من ولده على بن عبد الله بن عباس

علي بن عبد الله بن عباس

أمه زُرْعة بنت مِشرح بن معديكرب من كندة ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب سنة ٤٠ من الهجرة فسمي باسمه وكني بكنيته ابي الحسن وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيدا شريفًا بليغاً ويقال كان أجمل قرشي على وجه الارض وأوسمهم وأكثرهم صلاة وكان مفرطاً في الطول اذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله . وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحُمَيمة بالشُّراة (وهي صقع بالشام في طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من اقليم البلقاء) فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده وكانت وفاته سنة ١١٧

وأعقب علي اثنين وعشرين ولدا ذكرا واحدى عشرة أنثى . وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر واسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الاكبر وعبيد الله وعبد الملك وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الاصغر ويحيي واسحاق ويعقوب وعبد العزيز واسماعيل الاصغر وعبد الله الاوسط . ستة منهم لا عقب لهم والباقون أعقبوا كثيرا ومنهم انتشر البيت العباسي وكثر جدا . وبيت الخلافة في محمد أكبر أولاده

محمد بن علي

هو والد ابراهيم الامام وأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية وهو الذي ابتدأت الدعوة على يديه وكان ذلك في حياة أبيه علي ولكن لم يكن لابيه ذكر في هذه الدعوة

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العماد فلنشرع في بيان كيف وجدت

فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة اليهم وكيف تمكنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها

كيف نشأت فكرة الخلافة

في بنى العباس

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على علي بن أبي طالب أن يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فان كانت فيهم والا أوصى بهم من سيكون خليفة فامتنع من ذلك على قائلا انه ان منعنا اياها لا ننالها أبدا

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحال ما ذكرنا فمال الجمهور الاسلامى الى مبايعة أبي بكر الصديق رضى الله عنه بعد المناظرات التى جرت بين المهاجرين والانصار فى سقيفة بنى ساعدة وكانت هناك فئة قليلة تميل الى أن تكون الخلافة فى بنى هاشم رهط النبي الأدنين ولم يكن فيهم من أعمامه الا العباس بن عبد المطلب وكان من بنى أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم على بن أبي طالب. ومع أن العباس كان فى ذلك الوقت أسن بنى هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على علي بن أبي طالب لما لعلى من المزايا الكثيرة التى بيناها فيما سبق . وكان على نفسه يرى أنه أحق الناس أن يكون خليفة بعد رسول الله

صلى الله عليه وسلم وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبى بكر مدة حياة فاطمة رضى الله عنها فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور وبايع أبا بكر على ملأ من الناس

عاش على والعباس فى عهد أبى بكر ثم بايعا عمر لما عهد اليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين . الى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد اليهم عمر اختيار الخليفة من بعده وكان على يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه فى العدول عنه

وفى أواخر خلافة عثمان توفى العباس بن عبد المطلب تاركا عقباً كثيرا أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثانى أولاده ولم يعلم أن أحدا منهم كان يتطلع الى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده

بعد مضى ست سنوات من خلافة عثمان وجدت حركة فى بعض النفوس تتجه الى نقل الخلافة من عثمان بن عفان الى على بن أبى طالب وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا فى الامصار الاسلامية الكبرى وهى الكوفة والبصرة والفسطاط وتذرعوا الى ذلك بالعيب فى ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها وكان من فى مصر يكتب الى من فى المصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس فيقول الناس أما نحن ففى عافية مما ابتلى به هؤلاء وجميعهم يكتبون الى ناس فى المدينة بمثل ذلك حتى ملؤا البلاد طعنا . ولما وجدوا لذلك ارتياحا من بعض النفوس انتقلوا من ذلك الى الطعن فى عثمان نفسه فنسبوا اليه أمورا منها ما هو غير صحيح ومنها ماهو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن

فيهم طاعن وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ما قصدوا اليه ألفت وفود من غوغاء الامصار الثلاث ممن تأثر بهذه الفتن فذهبت الى المدينة وهى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضرة الاسلام الكبرى ومقر الخلافة الاسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان فأشكاهم عثمان من جميع ماشكوا منه ولان لهم جدا حتى لا يوجد لهم سبيلا الى الفتنة فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل الى أوطانهم وسار كل وفد فى الطريق التى توصله الى مصره وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادرا من عثمان الى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقابا لهم وتنكيلا والكتاب مختوم بخاتم عثمان فلما أروه اياه حلف لهم أنه ما كتبه ولا أمر بكتابته وهو صادق فى يمينه فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم اياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما فى أنفسهم من الشر وحصروا عثمان فى داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلما وعدوانا ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كر الايام

بعد أن تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة على على بن أبى طالب فقبلها بعد تردد أمضى رحمه الله حياته فى حرب مخالفيه فى البصرة والنهروان وصفين ولم تصف له الخلافة يوما واحدا الى أن اغتاله أحد الخوارج فى رمضان سنة ٤٠ من الهجرة فى حاضرة خلافته وهى الكوفة .

كان الجمهور الاسلامى فى ذلك الوقت قد انضم الى خصمه معاوية بن أبى سفيان حيث كان فى بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر . أما الكوفة فكانت مقرا لشيعة على ومحبيه الذين كان منهم من يرى

تفضيله لا على خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من الخلفاء أيضاً ومع هذا فانه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والاخلاص بل كثيرا ما أهملوا أوامره التى كان يصدرها اليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم فى الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن أبوه على بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأى رضى الله عنه بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم ففضل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن الخلافة مفضلا جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله ﷺ وأقام على ذلك حتى توفى بها سنة ٥٠ من الهجرة

ظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاء اليد فاجتمعت الامة على طاعته والرضا به وسكنت الدعوة الى أهل البيت وخبت نار التشيع الا أنها كانت مستكنة فى أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد فلما تولاها هبت أعاصير الفتنة فى المدينة ومكة والكوفة

فاما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الانصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المرى الذى أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة

وأما مكة فعاذ بها عبد الله بن الزبير طالبا الخلافة لنفسه

وأما الكوفة فان من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون اليهم الحسين بن على

شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد فلم يكن من الحسين الا أن لبى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه وسار اليهم من غير جند يركن اليه ولا مال يستعين به فقابلته ببعض الطريق جنود عبيد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه الله بكر بلاء . ولم تقم شيعة أبيه بشئ من المساعدة بل ظلوا فى مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول

لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد وعظم أمر ابن الزبير ودخل فى دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق وأبى أن يبايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن على المشهور بابن الحنفية وعبدالله بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم

ظهر فى تلك الاوقات رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزا فى البلاد العراقية مستعينا بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لاهل البيت وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى فذهب الى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعيا على من قتل الحسين بن على وداعيا الى الامام المهدى وهو محمد بن على الذى صار بعد أخويه أكبر أبناء على رضى الله عنه وتوسل الى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقا كانت أم كذبا وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الاكاذيب التى تؤثر عادة فى أنفس الغوغاء وقد أمكنه ان يجتذب الى نفسه رؤساء الشيعة فى الكوفة وأرسل الى محمد بن على وهو مضطهد محبوس بمكة جندا يخلصونه من شدته فنجحوا واجتمع فى حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية لواء لابن الزبير ولواء لبنى أمية ولواء

للخوارج ولواء لاصحاب محمد بن على الا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التى يكره بعضها بعضا

لم يطل حبل المختار بالكوفة فان عبد الله بن الزبير جهز له جيشا يقوده أخوه مصعب فسار اليه ومالأه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوءطويته وبذلك كانت الغلبة لمصعب الا أن ذلك لم يقض على التشيع فى بلاد العراق بل ظل كامنا ينتظر من يثيره لينتفع منه

أما محمد بن على فانه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الامر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الاقاليم الاسلامية كلها ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة الا أنه مغلوب على أمره حتى انه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته وقال انه تغيب وسيرجع وقال فى ذلك شاعرهم السيد الحميرى

ألا ان الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والأئمة من بنيه هم الاسباط لبس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن على فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم ويقال لهذا الفريق والذى قبله الكيسانية ينسبون الى كيسان وهو لقب المختار بن أبى عبيد

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه — قال هؤلاء ان الخلافة محصورة فى أولاد على من فاطمة رضى الله عنها ولما كان

الحسين هو الذى قتل دون الخلافة فهى فى عقبه وعلى هو الذى بقى من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء . وقد يقولون ان علياً هو الوصى أوصى اليه رسول الله ﷺ بالخلافة ثم الامام من بعده الحسن ثم الحسين ثم على وهكذا لا بد للامة من امام منصوص عليه ويقال لهؤلاء الشيعة الامامية

كان أكبر ولد العباس فى ذلك الوقت على بن عبد الله بن عباس وهو الذى انتشر منه العباسيون وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التى أقامه بها بنو أمية والذى أنزله بها الوليد بن عبد الملك وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة الى ولد العباس منذ على هذا ويقال ان السبب فى ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن على ابن أبى طالب لما حانت منيته كان مقيما بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة الى على هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية فى جانب على بن عبد الله بن عباس

أما بقية الشيعة فانهم بعد وفاة على زين العابدين افترقت بهم الطرق فمنهم من تولى بعده ابنه محمدا الباقر زاعمين أنه الامام بعد أبيه . ومنهم من قال ان الخلافة حق لكل فاطمى اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن على بن الحسين وهم المعروفون بالشيعة الزيدية

والذين حاولوا الوصول الى الخلافة وانتزاعها من بنى امية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا على بن عبد الله والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيى

وكانت وفاة على بن عبد الله ومحمد الباقر فى زمن متقارب بالحميمة فانتقل ولاء الكيسانية الى محمد بن على بن عبد الله بن عباس لان أباه أوصى اليه

وانتقل ولاء الامامية الى جعفر الصادق بن محمد الباقر ولم يفعل أنصار الأئمة شيأ ليرجعوا الخلافة الى ذوى الحق فيها حسب رأيهم

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم الى النصرة زيد بن على فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالباً الخلافة الا أن بنى أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التى أودت بحياتهم بعد فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفؤا ثورته وقتلوه وصلبوه وثار بعده ابنه يحيى فكانت خاتمته خاتمة أبيه

أما محمد بن على بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم فانه رأى أن نقل السلطان من بيت الى بيت لا بد أن يسبق باعداد أفكار الامة الى هذا النقل وأن كل محاولة فجائية لا بد أن تكون عاقبتها الفشل فرأى أن يسير فى المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم فعهد الى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس الى ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحدا خوفا من بنى أمية أن يقضوا على المدعو اذا عرف ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة هى الكوفة وبلاد خراسان . أما الكوفة فهى مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم أن يأووا اليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم . وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنيه على أمرين الاول أن فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة لأن مؤداها نقل الخلافة الى بيت النبى صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة وسيد الأمة وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته ولا يجوز نقله الى غير بيت الملك الا ان كان ذلك عن اختلاس — الثانى أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد فكان العنصر

العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيأ من الولايات العامة فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة واخراج الخلافة الى الدولة المستقبلة كى يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية . قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمدانى المعروف بابن الفقيه فى كتاب البلدان

وقد كان محمد بن على بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيههم الى الامصار — أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده — وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل — وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كاعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى — وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم — وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الاهواء ولم يتوزعها الدغل وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة وبعد فانى أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق

تأليف الجمعية السرية

للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلى بن عبد الله بن عباس حى لم يمت بعد لأنها ابتدأت فى أول القرن الثانى وعلى لم يمت الا سنة ١١٧ على قول وسنة ١١٤ على قول وكان الخليفة من بنى أمية اذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء

وجعل للدعوة مركزان أحدهما بالكوفة التى اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى على بن عبد الله والثانى بخراسان التى هى محل الدعوة الحقيقى ووجه اليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم

(١) سليمان بن كثير الخزاعى
(٢) مالك بن الهيثم «
(٣) طلحة بن زريق «
(٤) عمرو بن أعين «
(٥) عيسى بن أعين «
(٦) قحطبة بن شبيب الطائي
(٧) لاهز بن قريظ التميمى
(٨) موسى بن كعب «
(٩) القاسم بن مجاشع «
(١٠) أبو داود خالد بن ابراهيم الشيبانى
(١١) أبو على الهروى شبل بن طهمان الحنفى
(١٢) عمران بن اسمعيل المعيطى

واختار سبعين رجلا ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء وكتب اليهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثاني الى سنة ١٣٢ وهى السنة التى تم فيها النجاح و بويع فيها لابى العباس السفاح

وهذه المدة تنقسم الى قسمين متمايزين الاول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينضم الى القوم أبو مسلم الخرسانى وذلك فى الوقت الذى كانت الدولة الأموية فيه متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هـذه الدولة بخراسان وذلك نحو ٢٧ سنة والعصر الثانى عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الاسباب الداعية الى ذلك

العصر الاول

(من سنة ١٠٠ الى سنة ١٢٧)

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخرسانية ظاهرأمرهم التجارة و باطنها الدعوة ينتهزون الفرص ثم يبلغون أمرهم الى القائم بالـكوفة وهو يوصلها الى الحميمة أو الى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لامر الدعاة لأنهم كانوا اذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً وكانت اقامة محمد ابن على بالحميمة سبباً آخر فى انتظام المواصلات وكتم سرها

وكان أول ما ظهر من أمرهم بخراسان سنة ١٠٢ حيث جاء رجل من تميم الى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحـكم بن أبي العاص

الذى يقال له سعيد خذينة وقال له ان ههنا قوما قدظهر منهم كلام قبيح فبعث اليهم سعيد فأتى بهم فسألهم من أنتم قالوا أناس من التجار قال فما هـذا الذى يحكى عنـكم قالوا لا ندرى قال جئتم دعاة فقالوا ان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا فسأل من يعرف هؤلاء فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهـم وهم علينا ان أتاك منهم شيء تـكرهه فخلى سبيلهم

وفى سـنة ١٠٥ انضم الي هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هـذه الدولة وكبار دعاتها وكان موسرا فساعد القوم بماله وصادف أن توفى فى ذلك الوقت ميسرة القائم بالـكوفة فأقامه محمد بن على مقامه فـكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون فى الطريق التى يشرعها لهم

كان من أول النـكبات التى لحقت بهم أنه وشى بجمع من دعاتهم الى أسد ابن عبد الله القسرى أمير خراسان وهو وال شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادى فقطع أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم وأفلت عمار العبادى حتى أتى الـكوفة فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤم فـكتب به الى محمد بن على فأجابه (الحمد لله الذى صدق مقالتـكم ودعوتـكم وقد بقيت منـكم قتلى ستقتل) وقد وقـع بعد ذلك عمار العبادى فى يد أسد فألحقه باخوانه

وكان أسد بن عبد الله أشد ولاة خراسان على الشيعة فـكان لا يرحم أحـدا منهم وقع فى يده بل شرد بهم ونـكل ونفى من نفى وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة فى أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان سنة ١٠٩ وتلك ولايته

الاولى ثم ولى خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الاولى ففى سنة ١١٧ أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان ابن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن ابراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال لهم يافسقة ألم يقل الله عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام فقال سليمان بن كثير أتكلم أم أسكت قال بل تكلم قال نحن والله كما قال الشاعر

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

تدرى ماقصتنا صيدت والله العقارب بيدك أيها الامير انا أناس من قومك (اليمن) وان هذه المضرية انما رفعوا اليك هذا لانا كنا أشد الناس على قتيبة ابن مسلم وانما طلبوا بثأرهم

فانظروا كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية فى أحرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحيانا وقد كان ذلك الجواب سبباً فى خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الامير أمر خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد سنة ١٢٠ فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته

حصل بعد ذلك في العالم الاسلامى ما كان له أعظم الفضل فى نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك

﴿ أولا ﴾ انشقاق البيت الاموى حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح فى الوليد ونسبته الى العظائم من الفسوق والكفر واحلال ما حرم الله فكان معه قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بنى أمية يتمثل بقول الشاعر

انى أعيذكم بالله من فتن　　مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم　　فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم　　ان الذئاب اذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم　　فثم لا حسرة تغنى ولا جزع

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فانه كتب الى الغمر بن يزيد أخى الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه وقال فى ذلك الكتاب (أما بعد فان هذه الخلافة من الله علي مناهج رسله واقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها يقوم بحقها ناهض بانصار لها من المسلمين وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشده نكاية فى مارق مخالف ناكث ناكب عن الحق فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمر بهم الاسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامها وان كانت القلوب عنه نافرة — والمطلوبون بدم الخليفة ولاته من بنى أمية فان دمه غير ضائع وان سكنت بهم الفتنة والتأمت الامور فأمر الله لامر دله وقد كتبت بحالك فيما أبرموا وما ترى فانى مطرق الى أن أرى غيرا فاسطو بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول وفرائضه المتروكة مجانة ومعى قوم أسكن الله طاعتى قلوبهم أهل اقدام الى ما قدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعا وللنقمة دولة تأتى من الله ووقت موكل ولم أشبه محمدا ولا مروان غير أن رأيت غيرا ان لم أشمر للقدرية ازارى وأضربهم

بسيفى جارحا وطاعنا يرمى قضاء الله فى ذلك حيث أخذ أو يرمى فى عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما اطراقى الا لما أنتظر مما يأتينى عنك فلا تدعن ثارك بأخيك فان الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيرا

وكان مروان فى ذلك الوقت أميرا للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكا بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق فى هذا البيت ولا شبهة أن انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقا فى قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها .

﴿ ثانياً ﴾ ظهور العصبية القومية فى خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون الى شعبين عظيمين قحطان ونزار . وملك العرب القديم كان فى اليمن فلما جاء الاسلام تحول الى نزار لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان أمر النبوة والوحى قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة الى أعدائهم فنالوا فى زمن قليل مالم تنله أمة قبلهم فى مثل الزمن الذى ارتفع فيه قدرهم

ولما طال الزمن تراجع الناس الى شىء مما كانوا عليه فى الجاهلية بسبب أمراء السوء الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا الى سوء مغبتها وظهر ذلك فى أقوال شعرائهم التى لها أثر شديد فى أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج الجعدى

أبيت أرعى النجوم مرتفقا اذا استقلت تجرى أوائلها

من فتنة أصبحت مجللة ... قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخرسان والعراق ومن ... بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها فى لون مظلمة ... دهماء ملتجة غياطلها
يمسى السفيه الذى يعنف بالجهـ ... ـل سواء فيها وعاقلها
والناس فى كربة يكاد لها ... تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها فى كل مبهمة ... عمياء تمنى لها غوائلها
لا ينظر الناس فى عواقبها ... الا التى لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ ... ـلى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته ... فيها خطوب حمر زلازلها

وهذا أحسن وصف سمعته فى وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفيه وحليم كان بخراسان واليان مختلفان جاء أحدهما بعد الآخر فأما أولهما فهو أسد ابن عبد الله القسرى وهو من اليمن فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قوية الى قوة الدولة نفسها فلم يكن هناك ما يهيجه وثانيهما نصر بن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعه مع قومه الا أن شيعته بخراسان لم تكن بذاك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذى ولاه يعلم ذلك فانه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد كان مستشاره يسمى له أشخاصا بما لهم من محامد ومذام فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال ان اغتفرت له واحدة فانه عفيف مجرب عاقل قال هشام وما هى فقال المشير عشيرته بها قليلة فقال هشام أتريد عشيرة أكثر منى أنا عشيرته . وهذه جملة صحيحة فى زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة

ظهر الانشقاق فى عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الامير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعنى المعروف بالكرمانى وانما عرف بذلك لانه ولد بكرمان وكان نصر والكرمانى قبل ذلك متصافيين الا أن الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما. وكانت النزارية أيضا منشقة فربيعة فى جانب ومضر فى جانب وكان أكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحرورى الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة رسوله فكانت هذه الفرق الثلاث متعادية

حصلت حروب بين نصر والكرمانى وكانت القوة للكرمانى فأجلى نصرا عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمنيون دور المضرية فقالت امرأة من ضبة وهى أم كثير الضبية

لا بارك الله فى أنثى وعذبها ... تزوجت مضريا آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة ... أحللتموها بدار الذل والفقر
ان أنتم لم تكروا بعد جولتكم ... حتى تعيدوا رجال الازد والظهر
انى استحيت لكم من بذل طاعتكم ... هذا المزونى يجبيكم على قهر

وقال شاعر آخر

ألا يا نصر قد برح الخفاء ... وقد طال التمنى والرجاء
وأصبحت المزون بارض مرو ... تقضى فى الحكومة ماتشاء
يجوز قضاؤها فى كل حكم ... على مضر وان جار القضاء
وحمير فى مجالسها قعود ... ترقرق فى رقابهم الدماء
فان مضر بذا رضيت وذلت ... فطال لها المذله والشقاء

وان هى أعتبت فيها والا   فحل على عسا كرها العفاء

فى أثناء وقوع هذه الحوادث توفى محمد بن على امام الشيعة الذى يدعون اليه وأدلى بالامر من بعده الى ابنه ابراهيم وأعلم الشيعة بذلك فقاموا بالدعوة اليه مكان أبيه . ثم توفى بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفه فأقام ابراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بابى سلمة الخلال وأصله مولى لبنى الحارث بن كعب وكان صهرا لبكير بن ماهان فاوصى ابراهيم أن يقيمه مكانه

واتصل بابراهيم فى تلك الاوقات شاب من نوابغ الشبان وذوى المقدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخراسانى وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع ثم اتصل بمحمد بن على سنة ١٢٥ ثم بابنه ابراهيم وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوة العزم وكانت الشيعة بخراسان فى حاجة الى مثله ليشرعوا فى العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الاموية من الخلاف وما وقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار ابراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب الى أصحابه انى قد أمرته بأمرى فاسمعوا منه واقبلوا قوله فانى قد أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله

« ياعبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتى . وانظر هذا الحى من اليمن فاكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحى من ربيعه فاتهمهم فى أمرهم . وانظر هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شئ وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربياً فافعل فأيما غلام

بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هـذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير) ولا تعصه وان أشكل عليك أمر فاكتف به مني »

وانما أمره بتقريب أهل اليمن لانهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبيه التي كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان اذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر فانهم كانوا أصحاب الدولة . ومما يدل على اعتماد بنى العباس على أهل خراسان دون العرب قول الامام (وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل) سار أبو مسلم مزودا بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك سنة ١٢٨ وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الامور . وبعد سنة تهيأ لزيارة الامام ومعه عـدد كبير من الدعاة ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الامام يقول فيه (اني قـد بعثت اليك براية النصر فارجع من حيث ألفاك كتابي ووجه الى قحطبة بما معك يوافني به في الموسم) فعاد أبو مسلم الى مرو مستعدا للعمل

دور العمل

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لهـا سفيذنج وهناك بث دعاته في الناس ليجتمعوا اليه فانثال اليه الناس وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٩ . ولخمس بقين منـه عقد اللواء الذي بعث به الامام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعا وعقد الراية التي تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو قوله تعالى (اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) ولبسوا السواد الذي جعل شعارا للدولة العباسية وقدم على أبي مسلم الدعاة من أهل مرو بمن أجاب الدعوة

كان أول ما فعله أبو مسلم أن أمر برم حصن سفيذنج وأقام به هو ومن معه ولما حضر عيد الفطر سنة ١٢٩ أمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ونصب له منبرا فى العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والاذان ثم بالصلاة بالاقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوسا فى الجمعة والاعياد . وأمره أن يكبر ست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر فى الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه الى طعام أعد لهم مستبشرين

كتب أبو مسلم الى نصر بن سيار يقول له (أما بعد) فان الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عير أقواما فى القرآن فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا استكبارا فى الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما انه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه

وكان جوابه أن وجه الى أبى مسلم مولى له اسمه يزيد فى خيل عظيمة فوجه اليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعى فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل فى دعوته وأن يرجع الى مولاه سالما ويعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم مارأى فاختار الرجوع الى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه

ان هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فانا ما نحن عندهم على الاسلام

قدم يزيد على نصر فقال له نصر لامرحبا بك والله ما ظننت استبقاك القوم الا ليتخذوك حجة علينا فقال يزيد هو والله ما ظننت وقد استحلفونى ألا أكذب عليهم وأنا أقول انهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان واقامة ويتلون كتاب الله ويذكرون الله كثيرا ويدعون الى ولاية رسول الله ﷺ وما أحسب أمرهم الا سيعلو ولولا أنك مولاى أعتقتنى من الرق ما رجعت اليك ولا أقمت معهم

كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبى مسلم ووجدت الدعوة فى قلوبهم مكانا صالحا فضاقت عليه سفيذنج فرحل الى الماخوان وهى قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء بن حريث ولأبى العلاء خالد بن عثمان فحصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه فى الخندق سبعة آلاف رجل

رأى عرب خراسان ان ما بينهم من هذه الفرقة والحروب تشد أزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرمانى قد قتل فى احدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه فى قيادة اليمانيين ابنه على فكتب نصر الى شيبان الحرورى يقول له ان شئت فكف عنى حتى أقاتله وان شئت فاتفق معى على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود الى أمرنا الذى كنا عليه فهم شيبان أن يفعل ولكن أبا مسلم كانت له عين لا تنام فأرسل الى على بن الكرمانى يقول له انك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأى شيبان وانما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرمانى على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر الى شيبان انك لمغرور وايم الله ليتفاقمن هذا الامر حتى

تستصغرنى بجانبه

وفى أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر . ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبى مسلم أرسلت الى نصر تطلب منه الموادعة فأجاب الى ذلك وتوادعوا سنة . بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل الى ابن الكرمانى يهيجه بأخذ الثأر فقال انى ما صالحت نصرا وانما صالحت شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبى شيبان أن يعينه وقال لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرمانى الى أبى مسلم يستنصره وهذا كل ما يريده فأرسل اليه انى معك على نصر فاشتد ذلك على نصر وكتب الى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعثت اليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا الفتاك الذى ليست له غاية الا الفتك بهم جميعا فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر أبو مسلم متكلمى الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان فان السلطان فى مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد . ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ماأمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبأه لهم الغيب

بذلك ظفر أبو مسلم ظفرا عظيما فانه فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان فى جمادى الاولى سنة ١٣٠ يريد مرو وأرسل اليه ابن الكرمانى أن ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتى من قبلى فأرسل اليه أبومسلم أن لست آمن ان تجتمع يدك ويد نصر على حربى ولكن ادخل أنت فأنشب الحرب فدخل ابن الكرمانى وأنشب الحرب وأمر أبومسلم أحد قواده

بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم دخل والقتال دائر بين الكرماني ونصر فأمر الفريقين أن يكفا وهو يتلو (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) . ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الامارة وهرب نصر مستخفيا

صفت مرو لابي مسلم وأمر أحد النقباء باخذ البيعة على أهلها ونص البيعة (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى الى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبدأكم به ولاتكم وان كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه الا بأمر ولاتكم) وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصناديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم

أرسل بعد ذلك الى شيبان الحروري يدعوه الى بيعته فأبى وسار عن مرو الى سرخس فوجه اليه أبو مسلم جندا فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه . وبعد نيل هذا الانتصار عمد الى ابنى الكرماني على وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما وأكثر أصحابهما

صفت خراسان كلها لابي مسلم فبعث العمال الى جميع الولايات وأمر أحد قواده قحطبة بن شبيب أن يتبع نصرا ومعه لواء عقده له ابراهيم الامام فسار وراءه من بلد الى بلد حتى مرض نصر بالرى ومات بساوة فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الرى فتم للشيعة خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبة ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار الى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها شهرزور والموصل . سار قحطبة بعد ذلك واغلا

فى بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربى الفرات على نحو ٢٣ فرسخا من الكوفة وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى امرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال اذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلموا الامر اليه

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطا . وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسرى مسودا فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب اليه يعلمه فوصل الكتاب الى ابنه الحسن فارتحل الى الكوفة فدخلها فى المحرم سنة ١٣٢ وسلم الامر لابى سلمة الخلال فوجه الحسن الى قتال ابن هبيرة بواسط وضم اليه قوادا . ووجه حميد بن قحطبة الى المدائن . ووجه المسيب بن زهير وخالد ابن برمك الى دير قنى . وبعث المهلبى وشراحيل الى عين التمر . وبسام بن ابراهيم الى الاهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام وبالحجاز

افتضاح الامر

مضت هذه المدة كلها وليس عند بنى أمية علم بمن تدعو اليه الشيعة فانهم كانوا يدعون الى الرضا من آل محمد ﷺ ولا يعلم السر الا النقباء والدعاة أما العامة فمبلغ علمها أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع فى يد مروان بن محمد كتاب لابراهيم الى أبى مسلم جواب كتاب لابى مسلم يأمره فيه بقتل كل

من يتكلم بالعربية بخراسان فارسل مروان فى الحال الى عامله بدمشق يأمره بالكتاب الى صاحبه بالبلقاء أن يسير الى الحميمة ويأخذ ابراهيم بن محمد ويوجه به اليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على ابراهيم ولما أحس ابراهيم بما يراد به نعى نفسه الى أهل بيته وأوصى الى أخيه أبى العباس وأمر أهله بالسير الى الكوفة والسمع والطاعة لأبى العباس . أما ابراهيم فحبس فى سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بنى أمية ولم يزل فى سجنه حتى مات وكيفية موته مبهمة اختلف فيها المؤرخون فمنهم من قال انه سقى سما ومنهم من قال هدم عليه بيت فمات . ومما قيل فى رثائه

قد كنت أحسبنى جلدا فضعضعنى ... قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الامام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والاحجار والطين
فيه الامام الذى عمت مصيبته ... وعيلت كل ذى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... لكن عفا الله عمن قال آمين

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها فى صفر سنة ١٣٢ ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذى كان يعرف فى ذلك الوقت بوزير آل محمد فأنزلهم فى احدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال فى معسكره بحمام أعين خارج الكوفة

ويقال انه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم الى بنى على فكاتب ثلاثة من أعيانهم جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر الاشرف بن زين العابدين وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له اقصد أولا جعفر بن محمد فان أجاب فأبطل الكتابين الآخرين فان لم يجب

فالق عبد الله المحض فان أجاب فأبطل كتاب عمر وان لم يجب فالق عمر فذهب الرسول الى جعفر بن محمد أولا ودفع اليه كتاب أبى سلمة فقال مالى ولابى سلمة وهو شيعة لغيرى فقال له الرسول اقرأ الكتاب فقال جعفر لخادمه أدن السراج منى فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق فقال الرسول ألا تجيبه فقال قد رأيت الجواب . ثم مضى الرسول الى عبد الله المحض ودفع اليه الكتاب فقرأه وقبله وركب فى الحال الى جعفر وقال هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه الى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له جعفر ومتى صار أهل خراسان شيعتك أأنت وجهت اليهم أبا مسلم هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك فقال عبد الله كأن هذا الكلام منك لشىء فقال جعفر قد علم الله أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الاباطيل فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءنى مثل الكتاب الذى جاءك فانصرف عبد الله من عنده غير راض . وأما عمر بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه . أحس بعض القواد بأمر أبى سلمة فأحبطوا ما أراده وذهبوا الى الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا وقد أبقى هذا العمل فى نفس أبى العباس ما أبقى فترتب عليه ما يأتى ذكره

خرج أبو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الاول فصلى بالناس وكان فى خطبته بعد حمد الله والثناء عليه ان افتخر بقرابته من رسول الله ﷺ ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بنى حرب وبنى مروان أثرتهم وظلمهم

ثم قال (وانى لأرجو الا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت الا بالله يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم فى أعطياتكم مئة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح) وبهذه الجملة الاخيرة لقب السفاح

كان السفاح اذ ذاك موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داود ابن على عمه وكان من أفصح بنى العباس فخطب خطبة جاء فيها (انا والله ما خرجنا فى هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وانما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم لكم ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه الله ان نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ) ثم منى أهل الكوفة بما يحلو فى أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبى ﷺ واعادة حقوقهم وقال فى آخر خطبته (ألا وانه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد (وأشار بيده الى أبى العباس) فاعلموا ان هذا الامر فينا حتى نسلمه الى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه)

بعد أن تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح الى القصر وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل

ثم خرج أبو العباس الى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن على

بعد أن بلغوا هذا المبلغ بقى عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التى معه بالجزيرة وعلى بن هبيرة والقوة التى معه بواسط

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن على ليكون قائدا للجنود التى اختيرت لحرب مروان وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الاعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق وكانت الواقعة شديدة جدا انتهت بانتصار عبد الله و جنوده فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك لاحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وكان مع مروان من الجنود ١٢٠ ألفا من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها

انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فاقام بها نيفا وعشرين يوما ولما دنا منه عبد الله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقيه أبان مسودا مبايعا له فبايعه ودخل فى طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد الله يتبعه ثم مضى منها الى حمص ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان فلما أحس باقتراب عبدالله رحل

عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضا أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل

مر مروان بالاردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنها خرج الى بوصير وهى قرية من مركز الواسطى ببنى سويف

أما عبد الله بن على فجاءه كتاب من أبى العباس يأمره أن يوجه صالح بن على فى ملاحقة مروان فسار صالح في ذى القعدة سنة ١٣٢ وكان يسير على ساحل البحر والسفن حذاءه حتى وصل الى مصر ومن هناك سار حتى أتى بوصير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت دولة بنى أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة العباسية

وأما يزيد بن عمر بن هبيرة فانه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطا وتحصن بها وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب الى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه واسطا كيلا يصير فى حصار وليس بعد الحصار الا القتل فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم . ولما طال الامر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهرا ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد طلب بمن معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبى جعفر حتى جعل له أمانا وكتب به كتابا مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه الى أبى جعفر فانفذه أبو جعفر الى السفاح فامر بامضائه وكان رأى أبى جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان السفاح لا يقطع أمرا دون أبى مسلم فكتب أبو مسلم الى السفاح يقول له

ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة الى أبى جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الامان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبد الرحمن الهلالى بقوله :

منع العزاء حرارة الصدر — والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت — بالشيب لون مفارق الشعر
أفنى الحماة الغر ان عرضت — دون الوفاء حبائل الغدر
مالت حبائل امرهم بفتى — مثل النجوم حففن بالبدر
عالى نعيهم فقلت له — هلا أتيت بصيحة الحشر
لله درك من زعمت لنا — أن قد حوته حوادث الدهر
من للمنابر بعد مهلكهم — أو من يسد مكارم الفخر
فاذا ذكرتهم شكا الما — قلبي لفقد فوارس زهر
قتلى بدجلة ما يجنهم — الاعباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم — خير الحماة ليالى الذعر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ آخر مصباح للدولة الاموية

قامت الدولة العباسية ودخل فى حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذى وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنوأمية بن عبد شمس وسنأتى على وصفه بعد أن نبدى ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة

قامت هذه الدولة باسم الدين والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو اعادة الامر لآل محمد ﷺ ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاؤا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا فى ذمهم أحاديث أسندوها الى رسول الله ﷺ لا يعرفها رجال النقد من المحدثين . كان ذلك السلاح يصل الى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها

اختار القوم لغرس دعوتهم بلادا كانت قبل مهدا للتشيع وحب آل البيت وهى الكوفة وخراسان فقديما قامت بلاد العراق بنصر على بن أبى طالب وقامت لتأثر بالحسين بن على وجاهدت فى نصرة زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى فلم تترك فرصة لذلك الا انتهزتها . ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقا لقوتهم وأذاعوا فى ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهليها لذلك . وكان الذين دخلوا فى الاسلام من الفرس أقرب من غيرهم الى التأثر بآراء الشيعة لانهم لا يفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالارث وهو منحة يمنحها الله للأسرة المالكة فمن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعنة فاذا ألقى اليهم فى التعاليم أن بنى أمية غصبوا أهل بيت النبى حقهم سهلت الى ذلك اجابتهم واعتقدوا أن بنى أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم ولهذا كان من الوصايا التى بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية (ان قدرت الا تبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) وهى وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وانما لوحظت فيها الفوائد العاجلة

وفوق ما تقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على أكثر الامم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالى

للعرب يتحكم العرب فى رقابهم وفى أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ . وتأثير هذا السبب فى الخاصة أكثر منه فى العامة . فهذا النزاع كان فى الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بنى أمية والعباس وحدهم

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذى احيته العصبية الجاهلية وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن اخمادها الا من طريق الدين وكان تأثيره قد ضعف اذ ذاك على أن الامراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم اذا اجتمعت الامة . وقد أثبت التاريخ أن جميع الاغبياء من الملوك والامراء متى رأوا مصلحتهم فى ايقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم

استعمل فى الوصول الى احياء الدولة العباسية عسف شديد جدا فقد كان من الوصايا التى القيت الى أبى مسلم (واقتل من شككت فيه) ولا يخفى أن حزم أبى مسلم كان يسوقه الى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة فى قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل الى غرضه وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبى مسلم أيضاً وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبرا فكان ستمائة ألف

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم وفى بدء اسلامهم وفى فتوحهم فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم فى ذلك معروفة مشهورة فلما دخل بينهم هؤلاء

الاغتام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياتة واستحقوا بذلك ماحلاهم به محمد بن على بن طباطبا فى كتابه المعروف بالفخرى فى الآداب السلطانية قال اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة

وصف المملكة الاسلامية حين استيلاء بنى العباس

كانت المملكة الاسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر الى السوس الاقصى على شاطئ بحر الظلمات وطولها على ما ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى المعروف بالبشارى فى كتابه الموسوم بأحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ٢٦٠٠ فرسخ وتمتد عرضاً من شواطئ بحر قزوين الى أواخر بلاد النوبة وهى منقسمة الى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات وها نحن أولاء نذكر هذه الاقسام وما فيها من الولايات

(١) جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة

الاولى — الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه طيبة وينبع والجار وجدة والطائف وغيرها

الثانية — اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء

الثالثة — عمان وقصبتها صحار على شاطئ بحر الهند

الرابعة — هجر وقصبتها الاحساء

ويتبع اليمن من النواحى الاحقاف وبها من المدن حضرموت . ومهرة وبها من المدن الشحر . ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر . ويتبع الحجاز وادى القرى

وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التى جعلها الله قياما للناس وهى قبلة المسلمين كافة فى صلاتهم — وبها طيبة وهي مهاجر رسول الله ﷺ ومبعث النور الاسلامى

وأمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربى الا بصحار فان نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس الا أن اللغة عربية

ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداها

وبشمال هذا القسم بادية العرب وهى بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفية الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر الا الازرق ولا مدينة الا تيماء وفيها اثنا عشر طريقا توصل الى مكة منها تسع طولا يؤدين الى مكة وثلاث عرضا يؤدين الى الشام وبها طريق آخر لوادى القرى يؤدى اليها من البصرة ثم الى مصر وهذه الطرق هى (١) طريق مصر (٢) طريق الرملة (٣) طريق الشراة (٤) طريق تبوك (٥) طريق وبير (٦) طريق بطن السر (٧) طريق الرحبة (٨) طريق هيت (٩) طريق الكوفة (١٠) طريق القادسية (١١) طريق واسط (١٢) طريق وادى القرى (١٣) طريق البصرة وقد أجاد وصف هذه الطرق البشارى فى كتابه أحسن التقاسيم ص ٢٤٩ وما بعدها فراجعه

(١) اقليم العراق وبه ست كور

الاولى — الكوفة وقصبتها الكوفة وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن القادسية وعين التمر

الثانية — البصرة وقصبتها البصرة وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن الأبلة وعبادان

الثالثة — واسط وقصبتها واسط وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن فم الصلح

الرابعة — المدائن وقصبتها المدائن وهى مدينة كسروية وبها النهروان والدسكرة وجلولاء

الخامسة — حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان

السادسة — سامراء وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وعكبرا والانبار وهيت وتكريت

وهذا الاقليم كان يسمى فى القديم اقليم بابل وهكذا كان اسمه فى التقويم لاول عهد العباسيين ولقدكان زهرة ملك العباسيين وأجل بلدان الدنياوأثراها ورافداه الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا

وأمة هذا الاقليم نبطية دخل عليها العرب فى بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم ولذلك صارت لغة هذا الاقليم عربية وأصح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الاقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأى اقليم آخر ماعدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الاقاليم الثلاثة قبل الاسلام وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام الا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم فلما جاء الاسلام اتسق لهم الملك بالاقليمين وكان الشام مهد الدولة الاموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية

ومساحة العراق طولا من البحر الى السن ١٢٥ فرسخ وعرضه من العذيب الى عقبة حلوان ٨٠ فرسخاً فاذا كسرته كان ١٠٠٠٠ فرسخ

(٣) اقليم الجزيرة جزيرة أقور أو أثور أو أشور وهى ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور

الاولى — ديار ربيعة وقصبتها الموصل ومن مدنها الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر

الثانية — ديار مضر وقصبتها الرقة وبها من المدن باجروان وحصن مسلمة وحران والرها

الثالثة — ديار بكر وقصبتها آمد وبها من المدن ميافارقين وحصن كيفا

وقد نزل العرب قبل الاسلام بهذا الاقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كوره باسمائهم ولذلك يعتبر اقليما عربيا محضا لان من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم وينتهى هذا الاقليم الى حدود الروم وأرمينية

(٤) اقليم الشام وبه ست كور

الاولى — قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها انطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش واسكندرونه ومعرة النعمان

الثانية — حمص وقصبتها حمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية وانطرسوس

الثالثة — دمشق وقصبتها دمشق ومن مدنها بانياس وصيدا وبيروت واطرابلس

الرابعة — الأردن وقصبتها طبرية ومن مدنها صور وعكا وبيسان وأذرعات

الخامسة — فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وأريحا وعمان

السادسة — الشراة وقصبتها صغر ومن مدنها مآب وعمان وتبوك واذرح

وهذا الاقليم دخلة العرب قبل الاسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الامم القديمة

ولما جاء الاسلام كان مهدا عظيما من مهاد الحضارة العربية الاسلامية ولغة أهله عربية

وحدود هذا الاقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التى على حدود وحدود الجزيرة يقال لها الثغور وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الاسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان

وبهذا الاقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكا على بنى اسرائيل واحتفل فى بنائه كثيرا ويعظمه جميع الاديان من موسوى وعيسوى ومحمدى

(٥) اقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم

الاولى — الجفار وقصبتها الفرما وبها من المدن البقارة والورادة والعريش

الثانية — الحوف وقصبتها بلبيس وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرهما

الثالثة — الريف وقصبتها العباسية وبها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة

الرابعة — اسكندرية وقصبتها اسكندرية وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الحمام

الخامسة — مقدونيا وقصبتها الفسطاط ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس

السادسة — الصعيد وقصبتها أسوان وبه من المدن قوص واخميم والبلينا والفيوم وغيرها

السابعة — الواحات

أمة هذا الاقليم كانت فى القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الامم التى ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم بها ولما جاء الاسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فاقاموا فى مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس فى عهد الدولة الأموية وأقامت بالحوف (الشرقية) ثم اختلطت هذه الامة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربى والدين الاسلامى وذلك بعد تملك الدولة العباسية

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطا لا يزالون على دينهم

(٦) اقليم المغرب وهو ثمانى كور

الاولى — برقة وقصبتها برقة وبها من المدن رمادة واطرابلس

الثانية — افريقية وقصبتها القيروان وبها من المدن اسفاقس وسوسة وتونس وبونة وجزيرة بنى زغنايه — ومنستير

الثالثة — تاهرت وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطاطة ووهران وغيرها

الرابعة — سجلماسة وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة وامصلى وتازروت

الخامسة — فاس وقصبتها فاس وتسمى الكورة السوس الادنى وأمافاس فمحدثة بعد عهد العباسيين ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهوارة وسلا

السادسة ـ السوس الاقصى وقصبتها طرفانة ومن مدنها اغمات وماسة وغيرهما

السابعة ـ الاندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بنى أمية تتبع أمير افريقية وعليها وال من قبله . وهذا الاقليم كان يسكنه قبل الاسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الاسلام فلما جاء الاسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر الا أنهم لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربى بها الا بعد ذلك فى منتصف القرن الخامس فامة هذا الاقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربرى

(٧) اقليم المشرق وهو اقليم ذو جانبين الاول فى الشرق وهو ما كان شرقى جيحون أو أموداريا ويسمى بما وراء النهر أوهيطل والثانى فى الغرب وهو ما كان غربى جيحون ويسمى خراسان

(١) ماوراء النهر قال البشارى هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيرا وفقها وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين وأشد بأسا وأغلظ رقابا وأدوم جهادا وأسلم صدورا وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم

وبهذا القسم ست كور

الاولى – فرغانة وقصبتها اخسيكت ومن مدنها نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها

الثانية – اسبيجاب وقصبتها اسبيجاب ومن مدنها فاراب وترار وطراز وبلاسكون وغيرها

الثالثة – الشاش وقصبتها بنكث ومن مدنها نكث وغيرها

الرابعة – أشروسنة وقصبتها بنجكث

الخامسة – الصغد وقصبتها سمرقند وهى مصر الاقليم

السادسة – بخارى وقصبتها بخارى ومن مدنها بيكند

وهذا الاقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن فالكور هى الخُتَّل وقصبتها هُلْبك ثم قواديان ومدينتها نير – ثم خوارزم وهى على حافتى جيحون قصبتها العظمى شرقى النهر وهى كاث ولها قصبة أخرى غربيه وهي الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويدة زَمّ وفِرَبز وآمل

(ب) خراسان وبها تسع كور

الاولى – بلخ وقصبتها بلخ وبها ناحية طخارستان ومن مدنها ولواج والطالقان

الثانية – غزنين وقصبتها غزنين وبها من المدن كابل

الثالثة – بُسْت وقصبتها بست . وبعض الناس يجمع غزنين الى بست ويجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان

الرابعة – سجستان وقصبتها زَرَنج

الخامسة – هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذعيس

السادسة – جوزجانان وقصبتها اليهودية

السابعة – مرو الشاهجان وهى القصبة وبها ناحية مرو الروز

الثامنة – نيسابور والقصبة ايرانشهر وبها من المدن بيهق وطوس ونسا وابيورد

التاسعة – قهستان وقصبتها قاين

وهذا الاقليم من أعمر الاقاليم الاسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم أما أهل ما وراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الاسلام قد شملهم لاول عهد العباسيين. وقد دخل العرب هذا الاقليم ولم يتجاوزوا النهر الا فى عهد الدولة الاموية وقد كثرت فتوحهم فيما وراء النهر فى عهد قتيبة بن مسلم الباهلى العامل من قبل الحجاج. ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الاقليم وما يأتى بعد من الاقاليم الفارسية ولكن الدين الاسلامى شملهم فصار منهم أمة اسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الدينى ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء فى العلوم كافة

قال البشارى فى أحسن التقاسيم وألسنتهم مختلفة أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج وأهل طوس ونسا أحسن لسانا وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه. ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا فى أواخر الكلم. ولسان بلخ أحسن الالسن الأن

لهم فيه كلمات تستقبح . ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكافون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثا بالكوه الى آخر ما قال

(٨) اقليم الديلم وبه خمس كور

الاولى — قومس وقصبتها الدامغان ومن مدنها سمنان و بسطام

الثانية — جرجان وقصبتها شهرستان ومن مدنها استراباذ وآبسكون

الثالثه — طبرستان وقصبتها آمل ومن مدنها سالوس وسارية

الرابعة — الديلمان وقصبتها بروان

الخامسة — الخزر وقصبتها اتل ومن مدنها بلغار وسمندر وبهذه الكورة نهر اتل

وهذا الاقليم لم يفش الاسلام به الا فى عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيرا باللغة العربية

(٩) اقليم الرحاب وهو ثلاث كور

الاولى — أران وقصبتها برذعة ومن مدنها تفليس وشروان وباب الابواب وملاز كرد

الثانى — أرمينية وقصبتها اردبيل ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا

الثالث — اذربيجان وقصبتها اردبيل ومن مدنها تبريز

وهذا الاقليم به كثير من الاجناس والالسنة فيه الكرد والارمن والفرس وغيرهم ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الاسلام بهذه البلاد الا فى عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة

(١٠) اقليم الجبال وبه ثلاث كور

الاولى ـ الرى وقصبتها الرى وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر

الثانية ـ همذان وهى القصبة ومصر الاقليم

الثالثة ـ أصفهان وقصبتها اليهودية

(١١) اقليم خوزستان ويعرف بالاهواز وبه سبع كور وهى

الاولى ـ السوس وهى تتاخم العراق والجبال

الثانية ـ جند يسابور وهى القصبة وكانت مصر الاقليم

الثالثة ـ تستر وهى القصبة وليس بالاقليم أجل منها

الرابعة ـ عسكر مكرم وهى القصبة وبها من المدن جـوبك وزيدان وسوق الثلاثاء

الخامسة ـ الاهواز وبها من المدن تيرى ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى

السادسة ـ الدورق كورة تتاخم العراق من مدنها آزر وأجم وغـيرهما وقصبتها الدورق

السابعة ـ رامهرمز كورة تتاخم فارس وهى القصبة

ولهذا الاقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزى

(١٢) اقليم فارس وبه ست كور

الاولى ـ أرجان وهى القصبة

الثانية ـ اردشير خرة وقصبتها سيراف وهى ممتدة على البحر

الثالثة ـ درابجرد وهى القصبة وكانت فى القديم مصر الاقليم

الرابعة ـ شيراز وقصبتها على اسمها وهى مصر الاقليم وبها من المدن البيضاء وفسا

الخامسة ـ سابور وقصبتها شهرستان ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز

السادسة ـ اصطخر وهى أوسع الكور وقصبتها على اسمها

وبهذا الاقليم عدد عظيم من الاكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها

(١٣) اقليم كرمان وبه خمس كور

الاولى ـ بردسير وقصبتها على اسمها ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند

الثانية ـ نرماسير وهى القصبة

الثالثة ـ السيرجان وقصبتها على اسمها وهى مصر الاقليم

الرابعة ـ بم وهى تتاخم فارس

الخامسة ـ جيرفت وهى على البحر

(١٤) اقليم السند وبه خمس كور

الاولى ـ مكران وقصبتها بنجبور

الثانية ـ طوران وقصبتها قصدار

الثالثة ـ السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل

الرابعة ـ ويهند والقصبة باسمها

الخامسة ـ قنوج وهى القصبة

وبهذا الاقليم نهر مهران وهو يشبه النيل فى الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح

فهذه أربعة عشر اقليما منها ستة عربية وثمانية أعجمية والمراد بكونها عربية تغلب اللسان العربى على أهلها والا فأصل اقليم العرب هو جزيرتهم فحسب

وتشتمل هذه الاقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منها جميعها الخراج الى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقى عن مصروفها وذلك شئ عظيم

هـذا هو الملك الطويل العريض الذى ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان . وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الاقاليم التى بيناها بل كان بعض الاقاليم فيه الواليان والثلاثة و بعضها قد يضم الى والى اقليم آخر حسب الاحوال

ففى بعض أيام بنى أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوال واحد كما كان الحجاج بن يوسف فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات الى نهر جيحون وله ولاة من قبله على الاقاليم أو الكور التى تحت يده . وفى بعض الاحيان كانت تضم أفريقية كلها الى والى مصر ويرسل من قبله والياً على أفريقية

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوال واحد بل كان للحجاز وال ولليمن وال أما اليمامة وعمان فربما أضيفتا الى والى العراق كما كان الحجاج بن يوسف

ونحن الآن شارعون فى تفصيل أحوال بنى العباس وتبيين ما فعلوه فى هذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بما كان عليه الحال فى الدولة الاموية

فصل في ولاية العهد والبيعة

الاصل فى انتخاب الخليفة رضا الامة فمن ذلك يستمد قوته . هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختيارا منهم لا استنادا الى نص أو أمر من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم وبعد أن انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا الله سبحانه كما أنه عاهدهم على العمل فيهم باحكام الدين من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والامة هو

معنى البيعة تشبيها له بفعل البائع والمشترى فانهما كانا يتصافحان بالايدى عند اجراء عقد البيع

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم ما يوجبه الدين وتحتمه الشريعة

وقد سن أبو بكر رضى الله عنه طريقة أخرى فى انتخاب الخليفة وهى أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة وقد وافق الجمهور الاسلامى على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الادنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط وقد بينا فى تاريخ الدولة الاموية الاغلاط التى ارتكبها الامويون فى ولاية العهد وانها كانت من الاسباب التى قضت عليهم

اتبع بنو العباس فى ولاية العهد الاسلوب الذى سار عليه الامويون وهو عقد الولاية لاكثر من واحد من الابناء والاخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتى

ولى السفاح عهده رجلين يلى أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدى عز عليه أن يلى بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فسام عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد

على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدى فأظهر عيسى اباءفساموه خطة لا يرضى بها الا الذليل حتى أظهرت ذات نفسه فى شعر قاله وهو

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما اما صغار واما فتنة عمم
وقد هممت مرارا أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم

ويقال ان أبا جعفر سقاه شرابا يتلفه فكاد يموت منه ولكنه أبل من علته فقال فى ذلك أحد شعراء الدولة

أفلت من شربة الطبيب كما أفلت ظبى الصريم من قتره
من قانص ينفذ الفريص اذا ركب سهم الحتوف فى وتره
دفع عنك المليك صولة ليث يريد الاسد فى ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخلة تعرف فى سمعه وفى بصره
أزعر قد طار عن مفارقه وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى الى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى فى الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور

لما ولى المهدى وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولى المهدى العهد ولده فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الاذى ومع ما رآه المهدى من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادى فهارون الرشيد

جاء الهادى فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح

لان الدفاع عن الرشيد كان قويا وقربت منية الهادى فأخرت النتائج السيئة ويقال انه مات مسموما

ولى الرشيد ففكر فى ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه الى أخيه محمد الامين لانه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جليبة من بلاد فارس وكان ذلك العقد سنة ١٧٣ وسن الامين لاتتجاوز ثلاث السنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولى العهد بعد الامين وذلك برأى جعفر بن يحيى البرمكى وسعيه فعقد له سنة ١٨٣ . ثم طلب عبد الملك بن صالح بن على من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى الى همذان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر

أقول لغمة فى النفس منى ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم ستلقى ما سيمنعك الرقادا
فانك ان بقيت رأيت أمرا يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى لقسمته الخليقة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل وأورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حربا عوانا وسلس لاجتنابهم القيادا

فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبدا عليه ... أغيا كان ذلك أم رشادا

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الامين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعل الكتابين فى البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد واشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام وتقدم الى الحجبة فى حفظهما ومنع من أراد اخراجهما والذهاب بهما وقرئ الكتابان فى داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون

وقد أكد الأمر فى العهدين تأكيدا بلغ الغاية من التشديد ولكن طبيعة الملك غلابة . ما عتم الامين أن استخلف حتى حاك فى صدره ما حاك فى صدر أسلافه وهو تقديم ابنه فى ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده بخراسان فاباه طبعا لأن من ورائه قوة تدفع عنه وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التى كانت بين جند الامين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصرا شنيعاً وانتهى الامر بخلع الامين ثم قتله وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة فى أكثر البلدان

الاسلامية ولو كانت لخصومهم من آل على قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين

لم يعهد المأمون الا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد الا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختارهلها كبار الدولة بعد موت الواثق

جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لاولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وابراهيم المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والاهواز والسند ومكران وأقطع ثانيهما خراسان وما يضاف اليها وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين

حذا هذا الرجل حذو جده مع ما رأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم فى أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الاخوة من ولاية العهد فمالأ المنتصر وجماعة من الاتراك على قتله فقتلوه وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث ان خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة وأما المعتز فأبى وقال ان أردتم القتل فشأنكم ثم أجاب بعد تهديد ووعيد وأشهد كلا الاخوين على نفسه بالخلع القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلى العهد . وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالى عن أولاد المتوكل خوفا أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم

اختل نظام الخلافة ببغداد فى ذلك الوقت اذ صار كبار الاتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاؤا و بعد زمن يخلعونه ثم يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد الى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد الى ابنه المكتفى ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل فى الخلفاء حتى جاءت دولة بنى بويه وفى عهدهم لم يكن للخلفاء الا الاسم والتولية والعزل لبنى بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا فى عهدهم خلعوا الا أحمد القادر بالله فانه طال حكمه وعهد من بعده الى ابنه القائم

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة الى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولا كوخان حفيد جنكيز خان موحد التتر وقتل المستعصم سنة ٦٥٦

وخلاصة القول أن ولاية العهد فى النصف الاول من خلافة بنى العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان . أما البيعة فكانت فى الصدر الاول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ . ثم زيدت عليها أيمان فى أواخر الدولة الاموية وزادت الايمان كثيرا فى أوائل عهد الدولة العباسية ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين

كتبهما الامين والمأمون وحفظا فى البيت الحرام وقد أثارت تلك الايمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الاهمية

أولاهما طلاق المكره لانه لا يخفى أن من ضمن تلك الايمان يمين الطلاق ومن رأى فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لاهانات شديدة أصابته فى عهد المنصور ثانى خلفاء العباسيين وقد تغلب بسبب ذلك رأى فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع

الثانية اضافة الطلاق الى الزوجة التى لم تكن وقت اليمين فان البيعة لم تكن لتكتفى بطلاق الزوجات الموجودات بل تعددت ذلك الى من يتزوجهن الحالف الى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك اضافة العتق الى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة الى أجل معين أوغير معين. قال فقهاء العراق ان ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعى محمد بن ادريس وقد تغلب طبعاً رأى فقهاء العراق

---

١ – السفاح

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثى ولد سنة ١٠٤ بالحميمة وهى القرية التى كان أبوه وجده نازلين بها وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه ابراهيم ولما أحس ابراهيم باقتراب منيته عهد لاخيه أبى العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته الى الكوفة فسار اليها وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة

خلت من ربيع الاول سنة ١٣٢ (٣٠ اكتوبر سنة ٧٤٩) وكان مروان لا يزال حيا ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ (٥ اغسطس سنة ٧٥٠) ومن هذا اليوم يبتدئ التاريخ خلافة أبى العباس ولم يزل خليفة الى أن توفى بمدينة الانبار يوم الاحد لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ١٣٦ (٩ يونيه سنة ٧٥٤) فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع الى أن مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوما من لدن قتل مروان

وكان يعاصره فى مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ ــ ٧٧٥) وكان يملك فرنسا فى عهده بابن لبراف من العائلة الثانية الكارلونجيانية ابتدأ ملك أبى العباس بالكوفة ومنها انتقل الى الحيرة ثم الى الانبار ولم يكن بنو العباس يثقون بأهل الكوفة لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبى طالب

الاحوال الداخلية

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فانه كان لا يزال فى الامة العربية وقواد ضلعهم مع بنى أمية ولا يزال عندهم شئ من القوة فكانوا يثورون اما خوفا على أنفسهم من بنى العباس الذين أظهروا قسوة شديدة فى معاملة مغلوبيهم واما طمعا فى اعادة تلك الدولة العربية التى كان لهم منها نصيب وافر فقضى أبو العباس أكثر حياته فى اخماد تلك الثورات التى كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على يزيد بن هبيرة الذى كان أمير العراق لمروان ابن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التى لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا

بنى أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود فى احيائها من الناس من اذا ظفر بخصومه قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم ولعمرى ان ذلك لمن عزم الامور وليس يكون الا ممن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى أن سلطانه انما يتم اذا ائتلفت القلوب المتنافرة فاما من خاف عود القوة الى عدوه المغلوب أوكان يرى سلطانه لايكون الا على فرقة رعيته فانه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الاحوال والاستعداد

انظروا الى ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الاحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه فى دار هجرته انهم فعلوا ذلك لكنه لما ظفر بهم فى السنة الثامنة من الهجرة قال لهم ماتظنون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم كما قال يوسف الصديق لاخوته « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » أما بنو العباس فقد قسوا فى معاملة بنى أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلا فى الدول التى قامت على أثر دولة أخرى . فعل ذلك السفاح بالعراق وعبد الله بن على بالشام ونهر أبى فُطرس وسليمان بن على بالبصرة وداود بن على بالحجاز

فأما السفاح فقد روى أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه الاغانى بسنده قال كان أبو العباس جالساً فى مجلسه على سريره و بنو هاشم دونه على الكراسى وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم وكانوا فى أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير و يجلس بنو هاشم على الكراسى فدخل الحاجب فقال ياأمير المؤمنين بالباب رجل حجازى أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولايخبر

باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك قال هـذا مولاى سديف يدخل فدخل فلما نظر الى أبى العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول

أصبح الملك ثابت الآساس　　بالبهاليل من بنى العباس
بالصـدور المقدمين قديما　　والرؤس القماقم الرؤاس
ياأمير المطهرين من الذم ويا　　رأس منتهى كل راس
أنت مهدى هاشم وهداها　　كم أناس رجوك بعد اياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا　　واقطعن كل رقلة وغراس
انزلوها بحيث أنزلهـا الله　　بدار الهوان والاتعاس
خوفهم أظهر التـودد منهم　　وبهم منـكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم　　عنك بالسيف شأفة الارجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيدا　　وقتيـلا بجانب المهراس
والامام الذى بحران أمسى　　رهن قبر ذى غربة وتناسى

فتغير لون أبى العباس وأصابه زمع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك الى رجل منهم فقال قتلنا والله العبد ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال يابنى الفواعل أرى قتلا كم من أهلى قد سلفوا وانتم أحياء تتلذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالـكافركوبات فأهمدوا الا ما كان من أمر عبد العزيز ابن عمر بن عبد العزيز فانه استجار بداود بن على فأجاره واستوهبه من السفاح وهذا عمل شنيع جدا ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحملنا عناء تسطيرها وقد بلغ الضعف الانسانى حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان

من أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة . وهؤلاء أعداؤهم بالامس ويخافون أن تكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشده

لا يغرنك ما ترى من أناس ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل . ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح

كيف بالعفو عنهم وقديما قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد يالها من مصيبة وترات
والامام الذى أصيب بحرا ن امام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لاعفا الذنب لمروان غافر السيئات

وأما عبد الله بن على فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبى فطرس بالشام تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم أحد الا رضيع أو من هرب الى الاندلس فقتلهم ولما فرغ من قتلهم قال

بنى أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لى منكم بالاول الماضى
يطيب النفس أن النار تجمعكم عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم لا أقال الله عثرتكم بليث غاب الى الاعداء نهاض
ان كان غيظى لفوت منكم فلقد منيت منكم بما ربى به راضى

ولم يكفه ذلك بل عمد الى قبور بنى أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان فلم يجدوا فيه الا خيطا مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كانه الرماد . ونبش قبر عبد الملك بن مروان

فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد فى القبر الا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فانه وجد صحيحا لم يبل منه الا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح

وأما سليمان بن على فانه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم الثياب الموشية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق

وأما داود بن على فقتل منهم بمكة والمدينة عددا وافرا وكان قد حضر الى مكة ومعه عدد من بنى هاشم وعدد من بنى أمية فأنشده ابراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها

فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... ولا أمية بئس المجلس البادى

كانوا كعاد فأمسى الله أهلكهم ... بمثل ما أهلك الغاوين من عاد

فلن يكذبنى من هاشم أحد ... فيما أقول ولو أكثرت تعدادى

فشمر عن ساعده فى قتل الامويين حتى لم يبق منهم أحدا ارضاء لشهوة الانتقام التى تمكنت من قلوب بنى العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية

ومما قيل من الكلام الجيد فى رثاء هؤلاء التعساء ما قاله مولاهم عبد الله بن عمر العبلى

تقول أمامة لما رأت ... نشوزى عن المضجع الانفس

وقلة نومى على مضجعى ... لدى هجعة الاعين النعس

أبى ما عراك فقلت الهمو ... م عرون أباك فلا تبلسى

لفقد الاحبة اذ نالها ... سهام من الحدث المبئس

رمتها المنون بلا نكل ... ولا طائشات ولا نكس

باسهمها المتلفات النفو — س متى ما تصب مهجة تخلس
فصرعنهم فى نواحى البلا — د ملقى بأرض ولم يرمس
تقى أصبب وأثوابه — من العيب والعار لم تدنس
وآخر قد دس فى حفرة — وآخر قد طار لم يحسس
اذا عن ذكرهم لم ينم — أبوك وأوحش فى المجلس
فذاك الذى غالنى فاعلمى — ولا تسألى بامرىء متعس
أذلوا قناتى لمن رامها — وقد الصقوا الرغم بالمعطس

وكانت هذه المعاملة الشنيعة سبباً لهروب يعسوبهم عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك الى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الاطراف أعاد فيها مجد بيته وكانت تناصى فى العلو والاحترام خلافة بنى العباس فى المشرق على صغر رقعتها

لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بنى أمية سوء العذاب فاختفى بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان فلما رأى أنه لا يكون فى قبيلة ولا ناحية الا شهر أمره بها اعتزم أن يفدى حرمه بنفسه وصار الى سليمان بن على بالبصرة فقال له أصلح الله الامير لفظتنى البلاد اليك ودلنى فضلك عليك فاما قتلتنى غانما واما رددتنى سالما فقال ومن أنت ما أعرفك فانتسب له فقال سليمان مرحبا بك اقعد فتكلم آمنا غانما ما حاجتك فقال ان الحرم اللواتى أنت أقرب الناس اليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه فدمعت عينا سليمان ثم قال يا ابن أخى يحقن الله دمك ويحفظك فى حرمك ويوفر عليك مالك والله لو أمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت فكن

متواريا كظاهر وآمنا كخائف ولتأتنى رقاعك فكان عمرو يكتب اليه كما يكتب الرجل الى أبيه وعمه . ثم كتب سليمان الى السفاح (يا أمير المؤمنين انه قد وفد وافد من بنى أمية علينا وانا انما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم فاننا يجمعنا واياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقطع وترفع ولا توضع فان رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل وان فعل فيجعل كتابا عاما الى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا واحسانه الينا) فأجابه الى ما سأل فكان هذا أول أمان بنى أمية بعد أن بدد شمل سرواتهم قتلا وتشريدا واطمأن من جهتهم بال السفاح ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعده من آل بيته فتحا لا يمكنهم رتقه وهو وجود خلافة أخرى اسلامية بالجنوب الغربى من قارة أوربا

ولم تكن الشدة فى المعاملة قاصرة على أعدائهم بل نال أولياءهم منها شىء عظيم

لا ننسى أن من أعظم الرجال أثرا فى قيام هذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليمان الذى كان يقال له وزير آل محمد . لما تم الامر لبنى العباس اتهموه بانه كان يريد تحويل الخلافة عنهم الى آل على بن أبى طالب وكانوا يريدون قتله لكنهم أحبوا مشاورة أبى مسلم فى ذلك فبعث السفاح أخاه أبا جعفر الى خراسان لمقابلة أبى مسلم واستشارته فى ذلك فسار أبو جعفر حتى جاء مرو وهناك أخبر أبا مسلم خبر ابى سلمة فقال أكفيكموه ثم انتدب رجلا وأمره أن ينطلق الى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وتربص لابى سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة فى طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عماله بفارس . هكذا ذهبت حياة هذا الرجل

ذى الأثر الصالح فى دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولا دولة

وفى هـذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلا آخر لا يقل أثرا عن أبى سلمة وهو سليمان بن كثير الذى قال له فى حقه ابراهـيم الامام (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه واذا أشكل عليك أمر فا كتف به منى) فأحضره وقال له أتحفظ قول الامام لى من اتهمته فاقتله قال نعم قال فانى قد اتهمتك . فقال أنشدك الله قال لا تناشدنى الله وأنت منطو على غش الامام فأمر به فضرب عنقه. قتل الرجل بعد استقرار الامر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حسن أثره

وعلى الجملة فان حياة أبى العباس انقضت كلها فى الخلاص من بنى أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون فى اخلاصه فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة فى نكث العهود واغتيال المخالفين

وكان أكبر الرجال فى عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال (١) أبو مسلم الخراسانى بالمشرق (٢) أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق (٣) عبد الله بن على بالشام ومصر فهؤلاء الثلاثة كانوا أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل ما يجرى فيها من خير وشر الا أن هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم اخلاص بعضهم لبعض فان أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعة حتى طلب من السفاح أن يغتاله وأكثر فى ذلك وكاد السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة . وعبد الله بن على كان يطمع أن تكون الخلافة له بعد السفاح لماله من سابق الخدمة فى تأسيس

الدولة وانه الذى قام بهزيمة مروان وقطع دابر بنى أمية وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر . فكانت هذه الافكار سبباً فى حوادث جسام سيمر بكم ذكرها

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فكتب اليه يستأذنه فى الحج وأذن له . ولما كان السفاح لا يميل الى تولية أبى مسلم موسم الحج أرسل الى أخيه أبى جعفر يأمره أن يستأذنه فى الحج ففعل وأذن له وبطبيعة الحال ولاه الموسم ولم يكن لابى مسلم أن يظهر اشمئزازه من تقدم أبى جعفر عليه وان كان قد قال شيئاً من ذلك لبعض خاصته حيث قال أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا

لما وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح لولا أن أبا جعفر أرسل الى يستأذننى فى الحج هذا العام لوليتك الموسم . وقد حج فى هذا العام وهو سنة ١٣٦ فحلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه فى الطريق ما يزيد فى حسد أبى جعفر له وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به

كان معظم الولاة للسفاح من أعمامه وبنى أعمامه . وكان فى عهده من الاصلاح الداخلى ضرب المنار والأميال من الكوفة الى مكة وكانوا يمسحون الارض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليه كلمة واحد ثم اثنين وهكذا وقد جعلوا فى الطريق منارا به يأمن السارون الضلال فى تلك الفيافى وهو عمل عظيم

وكانت قاعدة الخلافة فى عهد السفاح الكوفة أولا ثم انتقل منها الى الحيرة ثم انتقل أخيرا الى الأنبار ونقل اليها دواوينه وهى التى مات فيها

ولاية العهد

فى سنة ١٣٦ عقد السفاح لأخيه أبى جعفر الخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبى جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن على وكتب العهد بذلك وصيره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه الى عيسى ابن موسى . وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التى سبق بها فى عهد بنى أمية وهى تولية اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بنى أمية من الخلاف والفرقة

وفاة السفاح

أصيب السفاح بالجدرى وهو بالأنبار وتوفى بها فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦ ودفن بالأنبار فى قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته

---

٢ — المنصور

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة سنة ١٠١

ولما انتقل أبو العباس من الحميمة الى الكوفة كان فيمن معه . ولما أفضت الخلافة الى أبى العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد فى تدبير الخلافة .

وفى السنة التى توفى فيها أبو العباس عقد العهد لاخيه أبى جعفر وكان اذ ذاك أميرا على الحج . ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فاخذ البيعة له بالانبار ابن

أخيه عيسى بن موسى وكتب اليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه الرسول باحدى المنازل عائدا بعد انتهاء الحج . وقد تمت البيعة له فى اليوم الذى توفى فيه أخوه (٨ يونيه سنة ٧٥٤) واستمر خليفة الى أن توفى يوم الاحد سابع ذى الحجة سنة ١٥٨ (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥) فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية الا ستة أيام

وكان يعاصره فى الاندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ — ١٧٢)

ويعاصره فى فرنسا بابن ببراف ثم شرلمان (٧٦٨ — ٨١٤) ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس

الاحوال لعهد المنصور

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها . لم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين لانه لم تبق لهم بقية يخاف منها وانما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات

الاولى منافسة عمه عبد الله بن على له فى الامر لما كان له من نباهة الذكر فى بنى العباس ولانه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشأم والجزيرة والموصل الذين أمره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزو بهم الروم وقد أظهر المنصور خوفه هذا لأبى مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له

الثانية من عظمة أبى مسلم الخراسانى مؤسس الدولة فانه كان يرى له من الصولة وشدة التمكن فى حياة أخيه ما لم يكن يرى معه لهم امرا ولا حكما ومثل المنصور فى علو نفسه لا يرضيه أن يكون له فى الامر شريك ذو سطوة وسلطان مثل أبى

مسلم على أن هناك أمرا آخر ربما كان يدور بخاطره وهو أن يستقل أبو مسلم بأمر خراسان ويخلع المنصور ثم يختار للخلافة رجلا آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الامر لاهل فارس .

الثالثة وهي أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بني عمه آل علي بن أبي طالب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب لما سيأتي بيانه فكان المنصور يتخوف أن يخرج عليه طالبا بالخلافة والذي كان يزيد هواجسه أنه عام حج في حياة أخيه لم يحضره محمد ولا أخوه ابراهيم ابنا عبد الله مع من شهده من سائر بني هاشم

كان المنصور يجمع الى الجرأة و بعد الهمة المكر والدهاء فعزم أن يضرب أعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعاً

عبد الله بن علي

أرسل عيسى بن موسى الى عبد الله بن علي ببيعة المنصور وعبد الله غاز فانصرف بمن معه من الجيوش قد بايع لنفسه حتى بلغ حران . علم بذلك المنصور وقد نزل الانبار وجمع بها خزائنه ودواوينه فاستحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد الله فسار أبو مسلم نحو عبد الله بحران وقد جمع اليه الجنود والسلاح والطعام والعلوفة وما يصلحه وخندق حول معسكره وكان جنده مؤلفا من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فخاف ألا يناصحه أهل خراسان اذا رأوا أبا مسلم مطلا فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفا أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغا فيه ولكنه على كل حال قتل منهم عددا كبيرا فضعضع من قوته وجلل

نفسه من العار مالا يمحوه الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم . ومما دل على قلة حزمه انه كان من ضمن القواد الذين معه حميد ابن قحطبة وهو من كبار القواد فى الدولة العباسية فأراد أن يستريح منه ولكنه لم يجرؤ أن يقتله فى المعسكر خوفا من تغير الجند فكتب له كتابا ووجهه الى حلب وعليها زفر بن عاصم وفى الكتاب اذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه ولما كان حميد ممن لا تغرهم هذه الخدعة فك الكتاب فى الطريق وقرأه ولما علم ما فيه دعا أناسا من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى اليهم أمره وشاورهم وقال من أراد منكم أن ينجو ويهرب فليسر معى فانى أريد ان آخذ طريق العراق ومن يرد منكم أن يحمل نفسه على السير فلا يفشين سرى وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد الله قائدا محنكا مثل حميد ترك عبد الله مدينة حران وأقبل الى نصيبين فاتخذها معسكرا وحصنها فأقبل اليه أبو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره فأراد أن يحتل موقع عبد الله لحصانته فكتب اليه انى لم أومر بقتالك ولم أوجه له ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام وانما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنطلى على عبد الله لانه يعرف مكايد خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له كيف نقيم معك وهذا يأتى بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا ولكنا نخرج الى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارينا ونقاتله ان قاتلنا فقال لهم عبد الله والله ما يريد الشام وما وجه الا لقتالكم ولئن أقمتم ليأتينكم فلم تطب أنفسهم وأبوا الا المسير الى الشام . فارتحل عبد الله متوجها الى الشام وحينئذ تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر

عبد الله بن على ولما بلغ ذلك عبد الله علم أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبى مسلم

كان أهل الشام أكثر فرسانا وأكمل عدة ولكن المركز الحصين الذى احتله أبو مسلم عوض عليه كثرة عدوه وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة أشهر والحرب بينهما سجال الا أن القوة راجحة فى معسكر أهل الشام حتى اذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٧ كانت بينهما الموقعة الفاصلة وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربى فاكتسب الظفر وذلك أنه أرسل الى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها الى الميسرة وليكن فى الميمنة حماة أصحابك فلما رأى ذلك عبد الله أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبى مسلم وضم أكثر جنودها الى الميمنة بازاء ميسرة أبى مسلم ثم أرسل أبو مسلم الى الحسن أن مر أهل القلب فليحملوا مع من بقى فى الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليها فحطموها وجال أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة

وهنا فعل عبد الله بن على فعلا لا يليق بشرف بنى هاشم وعلو اسمهم فى ميادين القتال فانهم كانوا يرون الفرار عارا لا تحتمله أنفسهم الأبية فاما ظفروا قتل ولكن عبد الله قال لاحد قواده ما ترى فقال أرى أن تصبر وتقاتل حتى تموت فان الفرار قبيح بمثلك وقبل عبت على مروان فقلت قبح الله مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأى وفر الى العراق تاركا معسكره فاحتواه أبو مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحدا وأمر بالكف عنهم

أما عبد الله فانه سار الى البصرة وكان أميرها أخاه سليمان بن على فآواه

وأقام عنده مدة متواريا ولما علم المنصور بذلك أرسل الى سليمان يأمره باشخاص عبد الله بن على اليه وأعطاه من الامان لعبد الله ما رضيه ووثق به فخرج به سليمان حتى قدم به الى المنصور سنة ١٣٩ فأمر بحبسه وحبس من كان معه ثم أمر بقتل بعضهم وأرسل آخرين منهم الى خراسان فقتلوا هناك واستمر عبد الله فى محبسه حتى مات سنة ١٤٧

هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذى كان على يده أكبر عمل فى تأسيس الدولة العباسية كما كان على يده أكبر الفظائع فى اهلاك البقايا من بنى أمية ولا نحجم عن اظهار نفورنا من هذه الطرق التى يلجأ اليها ذوو الخداع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين الى النتائج الخبيثة التى تجلب الشر على أمتهم فان المنصور لم يعبأ بتلك المواثيق التى أعطاها لعبد الله واستخف بها كما استخف بأمان بن هبيرة قبل ذلك كما أنا لا نحجم عن أن نقول ان عبد الله ختم حياته شر ختام بهربه من ميدان القتال فان طلاب العظائم اذا حال القدر بينهم وبينها لا يرضون الدنية لانفسهم ويموتون دون العار الذى يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم

أبومسلم

استراح المنصور من عبد الله بن على على يد أبى مسلم فوجه الهمة الى الراحة من هذا العدو الثانى الذى لا يطمئن على ملكه وهو حى لانه أصبح صاحب الشوكة والسلطان فى الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك ، والذى زاد الامر عنده أنه قد ألقى اليه أن أبا مسلم لا يحترم كتبه ويستهزئ بها اذا وردت اليه فصمم على الفتك بأبى مسلم

حصلت حادثة أوقعت الريبة فى قلب أبى مسلم وذلك أنه بعد تمام الهزيمة أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصى المغانم التى غنمت من عبد الله فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسلم وكاد يقتل الرسول لولا أن قيل له ماذنبه انما هو رسول فخلى سبيله ولم يمكنه مما جاء له وقال أكون أمينا على الدماء غير أمين على الاموال ، فعاد الرسول وأخبر المنصور ، لم يكن يحب أن تدخل أبا مسلم أقل ريبة منه لخوفه أن يمضى الى خراسان وبذلك لا يتمكن منه الا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب الى أبى مسلم (انى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه الى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فان أحب لقاءك أتيته من قريب) فلما جاء الكتاب أبا مسلم غضب وقال هو يوليني الشام ومصر وخراسان لى وصمم على المضى الى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعا على الخلاف مريدا خراسان. رأى المنصور أنه لم يبق الا استعمال الدهاء لايقاع أبى مسلم فى فخ ينصبه له حتى لا يثير حربا شعواء لا تعلم نتيجتها فتوجه الى المدائن وكتب الى أبى مسلم بالمصير اليه فكتب اليه أبو مسلم (انه لم يبق لأمير المؤمنين اكرمه الله عدو الأأمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك فان أبيت الأأن تعطى نفسك ارادتها نقضت ماابرمت من عهدك ضنا بنفسى) وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالا فى قلب المنصور لأنه كتاب رجل مدل بما له من القوة حتى وضع نفسه قرنا

للخليفة ادلالا بمركزه وسابقته فى اقامة دعائم الخلافة العباسية فكتب اليه المنصور (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الامر على ما أنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سماع ولا طاعة وحمل اليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن اليها ان أصغيت اليها وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك)

أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى ووجه معه أبا حميد المروزى وأمره أن يكلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحدا وأن يمنيه فان أبى قال له — يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس وأنا برئ من محمد ان مضيت مشاقا ولم تأتنى ان وكلت أمرك لاحد سواى وان لم أل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك

سار أبو حميد حتى ورد على أبى مسلم فكلمه كلاما رقيقا فيه نصيحة وتذكير بحقوق الامام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار أبو مسلم مختصيه فأشاروا عليه بألا يقدم على المنصور لانه لم يعد يأمنه بعدان وقع فى نفسه ماوقع فقال لابى حميد ارجع الى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه وحينئذ بلغه أبو حميد الرسالة الاخيرة فوجم لها أبو مسلم لان هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن اذا هم وصلوا الى قمة علوهم فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور جعلته يخنع

ويلين والذى زاده حيرة وارتبا كا مافعله المنصور من التدبير العظيم الذى يضعف آمال أبى مسلم من خراسان وجنودها ذلك أنه كتب الى خليفة أبى مسلم على جند خراسان يعطيه امارة خراسان ماعاش ولا شئ أكبر من ذلك يقطع صلته بأبى مسلم فكتب اليه حين بلغته الاخبار بقرب مجيئه الى خراسان (انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فلا تخالفن امامك ولا ترجعن الا باذنه) فوافاه هذا الكتاب حين مجىء رسالة المنصور فزاده ذلك رعبا ولم يجد بدا من أن يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور . كان المنصور مصمما على قتل أبى مسلم ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمنا لا يحس بشئ من الجفاء فلما قارب أبو مسلم المدائن أمر الناس وبنى هاشم فتلقوه حتى اذا دخل على المنصور سلم عليه سلاما لا يشوبه شئ مخيف وأمره أن ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة . ولما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة رجال من الحرس وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق فاذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم . ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه . ومن تمام تدبيره أنه شرع يسأله عن نصلين أصابهما فى متاع عبد الله بن علي فقال هذا أحدهما للذى هو معه فقال المنصور أرنيه فانتضاه وناوله اياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وانما فعل ذلك ليأمن على نفسه أن يفتك به أبو مسلم اذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه وأخيرا سأله عن سبب قصده خراسان مراغما فقال دع هذا فما أصبحت أخاف أحدا الا الله فصفق حينئذ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الاربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهبت نفسه . ثم أراد أن يفرق الجمع الذى أقبل مع أبى مسلم فأعطاهم جوائز ألهتهم عن التفكير فى الخلاف ثم ارسل الى القواد

الذين فى جيش أبى مسلم جوائز سنية وأرضى جميع الجند حتى رضوا

وبقتل أبى مسلم عرف المنصور أنه ابتدأ سلطانه الحقيقى الذى لا يشاركه فيه ولم يأس على أبى مسلم لانه رأى أمام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه

من الضرورى أن ننبه الافكار الى أن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت حياتهم فى الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبى مسلم وسبب ذلك أن هؤلاء القواد يكونون فى بادئ الامر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لانهم هم المباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم فاذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم لم يكن لنفوذهم فى الدولة حد يقفون عنده لانهم يرون أن الامر انما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذى بذلوه فاذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكى الفؤاد لم يسعه أن يحمل كل هذا واذا ألجأته الضرورة حمله على مضض واذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازها . وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب صفحا عماله من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت ادراكها

ومع مابدا من أبى مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه ولا نتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولو كانت الضحايا التى ذهبت فى تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددناه من كبار السواس الا انه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة فى نظره كافية لازهاق نفس المتهم فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات والدهاء ولكن لا نصفه بحسن السياسة ومارأيت أجهل من أبى مسلم فى قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ

الدعوة بقوله أتذكر قول الامام لى من اتهمته فاقتله . فاذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجبا أفلا يكون فيما صنعه مع أبى جعفر ما يدعو الى الريبة فيه واستحقاقه القتل فهو اذا كان قادما على القتل بمقتضى أصل كثيرا ما نفذه ولذا لا يكون قتله محلا للنظر والاستغراب (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون)

محمد بن عبد الله و بنو الحسن بن على

قدمنا أن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقا ثلاثة فرقة ترى أن امام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وهؤلاء امامية وكانوا يتولون الى وقت المنصور جعفر بن محمد بن على بن الحسين المعروف بالصادق . وفرقة ترى أن امام المسلمين يكون من بنى فاطمة الا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء امامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا الى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون فى الامام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن على وابنه يحيى . وفرقة ترى امامة أهل البيت من غير تقييد ببنى فاطمة وهم الذين نصروا بنى العباس وكانت الفرقتان الاوليان منتشرتين فى كثير من الاقاليم العربية والاعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة لانها كانت الى الرضا من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للامر كما عدوا بنى أمية من قبلهم وأعظمهم فى ذلك رجلان أحدهما جعفر الصادق امام الامامية ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا وكان يوصى أصحابه بالخلود الى السكينة لانه لم ير فرصة معقولة وثانيهما

محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب وهذا كان أطمع فى الامر لما زعموه من أن بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها فى أواخر عهد بنى أمية وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لابى العباس ولا لأبى جعفر ولما حج أبو جعفر فى عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعا الا محمد بن عبد الله وأخاه ابراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبيد الله الحارثى أمير المدينة ما يهمك من أمرهما انا آتيك بهما فضمنه اياهما وأبقاه عاملا على المدينة . ثم انه دعا بنى هاشم رجلا رجلا كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول ياأمير المؤمنين قد علم انك قد عرفته يطلب هذا الشان قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافا ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة الاحسن بن زيد بن حسن بن على فانه أخبره خبره وقال والله ما آمن وثوبه عليك فررأيك فأيقظ بقوله من لا ينام

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل ليعرف الاخبار عن محمد واستخراج ماعند أبيه عبد الله بن حسن من أخباره ولما علم أن عبد الله يعرف نية ابنه حج سنة ١٤٠ وسأل عبد الله عن ابنيه فأنكر أن يكون عنده علم بهما فتيقن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقا فى الحصول على محمد وابراهيم فعزله وولى بدله على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسرى وبسط يده فى النفقة فى طلبه فأنفق كثيرا من المال فى هذه السبيل وبحث بحثا كثيرا فى المدينة وخارجها فلم يصل الى نتيجة فعزله المنصور وأشير عليه أن يولى المدينة رجلا من آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل على من العداوة سائقا له الى

البحث الشديد والجد فى الامر فلم يرق هذا فى عينى المنصور وقال أعاهد الله الا أثأر من أهل بيتى بعدوى وعدوهم ولكن أبعث عليهم صعلوكا من صعاليك العرب فولى على المدينة رياح بن عثمان بن حيان المرى فورد المدينة فى شهر رمضان سنة ١٤٤ وهو عازم على عسف الاعراب الذين يستخفى محمد بن عبد الله عندهم فكان أول شىء فعله أن استهان بمحمد بن خالد القسرى الذى كان قبله واليا وعذبه هو وكاتبه ثم أرهق محمد بن عبد الله طلبا حتى لقى شدائد ما كان يراها فى عهد أسلافه من ولاة المدينة فقال فى ذلك

منخرق السربال يشكو الوجى ... تنكبه أطراف مرو حداد

شرده الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حر الجلاد

قد كان فى الموت له راحة ... والموت حتم فى رقاب العباد

وزاد المنصور فى ارهاق محمد فأمر بأخذ بنى الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلا وحبسهم بالمدينة ولما علم محمد بذلك جاء الى أمه هند وقال لها انى قد حملت أبى وعمومتى مالا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدى فى أيديهم فعسى أن يخلى عنهم . فتنكرت هند ولبست اطمارا ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها فلما رآها عبد الله أبو محمد أثبتها فنهض اليها فأخبرته بما قال محمد فقال كلا بل نصبر فوالله انى لارجو ان يفتح الله به خيرا قولى له فليدع الى أمره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله . فانصرفت وتم محمد على اختفائه

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر سنة ١٤٤ فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محمد وأخيه ابراهيم أمر بحملهم الى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بنى حسن

ابن حسن لامهم أمهم جيعا فاطمة بنت حسين بن على وكان ابراهيم بن عبد الله صهره على ابنته حملوا مقيدين بالاغلال والاثقال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقى الكوفة مما يلى بغداد على نهر الفرات . وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع مالا طاقة للانسان على تسطيره وكان عظم فظائعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان. وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد أن مات أكثرهم فى الحبس مع أن بنى العباس ملؤا الدنيا تهويلا ورياء بأنهم خرجوا انتقاما من قتلة الحسين بن على وزيد بن حسن ويحيى بن زيد وهؤلاء انما قتلوا فى ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحدا من آل على بالشكل الفظيع الذى ذهب به بنو حسن فى عهد بنى عمهم من آل العباس

كانت نتيجة هذا الاحراج وهذه الفظائع أن عزم محمد على الظهور بالمدينة وتحدث أهلها بذلك وعلم به رياح أمير المدينة فأحب أن يعد عدته لذلك فعوجل . دخل محمد المدينة ومعه ٢٥٠ رجل فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا رياحا وكان خروجه فى أول يوم من رجب سنة ١٤٥ وبعد أن استولى على البلد صعد منبر الحرم وقال (أيها الناس انه كان من أمرنا وأمر الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا الله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وانما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وان أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الاولين والانصار المواسين اللهم انهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت اللهم فأحصهم عددا واقتلهم بددا

ولا تغادر منهم أحدا أيها الناس انى والله ماخرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكنى اخترتكم لنفسى والله ماجئت هذه وفى الارض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذت لى فيه البيعة)

وكان الذى أوقع محمدا فى هذا الغلط وجعله يفهم أن دعوته عمت البقاع ان المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قواده يدعونه الى الظهور ويخبرونه انهم معه فكان محمد يقول لو التقينا مال الى القواد كلهم فهذا الذى جعله يظن هذا الظن . ومما زاده خطأ فى قدر قوة نفسه أنه كان متفقا مع أخيه ابراهيم أن يخرج بالبصرة فى اليوم الذى يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمرهما أباجعفر فيفت ذلك فى عضده ولكن ابراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو أن محمدا سبق الميعاد والنتيجة أنهما لم يخرجا معا . وأعظم خطر على الانسان مايصيبه من قبل فهمه فى نفسه فانه اذا خاض العظائم وهو يظن لنفسه من القوة ماليس لها كان حريا بالفشل والخيبة

على أنه فضلا عن ذلك كله جعل نفسه محصورا بالمدينة وهى ليست بمركز حربى يمكن القائد أن يبقى فيه على الدفاع طويلا وحياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار الا قليلا فلم يكن محمد موفقا فى تدبيره مع ما كان يتحلى به من الخصال التى كانت ترفعه فى أعين أهل المدينة على أبى جعفر فانهم كانوا لا يرون فيه غشم أبى جعفر ولا ميله للعسف والظلم بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ما وجد الى ذلك سبيلا ويحب الخير للناس وكان لذلك يلقب عندهم بالنفس الزكية وبالمهدى. ولما استفتى مالك امام دار الهجرة فى الخروج مع محمد وقيل له ان فى أعناقنا بيعة المنصور قال انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين ولكن هذا كله لا يفيد مع ضعف

المركز الطبيعى ولذا قال له محمد بن خالد القسرى لما ظهر انك قد خرجت فى هذا البلد والله لو وقف على نقب من أنقابه لمات أهله جوعا وعطشا فانهض معى فانما هى عشر حتى أضربه بمائة الف سيف فأبى عليه ذلك . ولما علم المنصور بخروجه قال للربيع بن عبيد الله بن عبد المدان خرج محمد . فقال أين قال بالمدينة فقال الربيع هلك والله خرج فى غير عدد ولا رجال

كان المنصور حين بلوغه الخبر مشتغلا ببناء بغداد فسار الى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لان أهلها شيعة لآل على ويخاف منهم أن يخرجوا لمساعدة محمد فاقفل أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد . ثم أحب أن يراسل محمدا قبل الحرب فكتب اليه كتابا هذه نسخته (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين الى محمد بن عبد الله أما بعد فانما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم . ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ان تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك واخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وان أعطيك ألف ألف درهم وأن أنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأن اطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه فان شئت ان تتوثق لنفسك فوجه الى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والامان ما أحببت والسلام)

فكتب اليه محمد بن عبد الله (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد

المهدى أمير المؤمنين الى عبد الله بن محمد أما بعد طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأنا أعرض عليك من الامان مثل الذى أعطيتنى وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم انما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا وان أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وانا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة فى الاسلام من بينكم فأنا أوسط بنى هاشم نسباً وخيرهم أما وأبا لم تلدنى العجم ولم تعرق فىّ أمهات الاولاد وان الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدنى من النبيين أفضلهم محمد ﷺ ومن أصحابه أقدمهم اسلاما وأوسعهم علما وأكثرهم جهادا على بن أبى طالب ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى الى القبلة ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين فى الاسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وان رسول الله ﷺ ولدنى مرتين من قبل جدىّ الحسن والحسين فما زال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار فولدنى أرفع الناس درجة فى الجنة وأهون أهل النار عذابا فأنا ابن خير الاخيار وابن خير الاشرار وابن خير أهل

الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله ان دخلت فى بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ماأصبته الا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك فى ذلك فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى لقبول الامان فأما أمانك الذى عرضت علىّ فأى الامانات هو أأمان بن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على أم أمان أبى مسلم والسلام

فكتب اليه أبو جعفر (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين الى محمد بن عبد الله أما بعد فقد أتانى كتابك و بلغنى كلامك فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والاولياء ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الادنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحدهما أبى وكفر به اثنان أحدهما أبوك . فاما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الانساب وحق الاحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه فاما ماذكرت من فاطمة أم أبى طالب فان الله لم يهد من ولدها أحدا الى الاسلام ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الآخرة والاولى وأسعدهم بدخول الجنة غدا ولكن الله أبى ذلك فقال انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . فاما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب وفاطمة أم الحسن وان هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الاولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم الا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب

الا مرة واحدة وأما ماذكرت من أنك ابن رسول الله فان الله عز وجل أبى ذلك فقال ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ولكنكم بنو ابنته وانها لقرابة قريبة غير أنها لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلا فأبى الناس الا تقديم الشيخين ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان فى أصحاب الشورى فكل دفعه عنها بايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعدا الى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك الى أبيك الحسن فسلمه الى معاوية بخرق ودراهم وأسلم فى يديه شيعته وخرج الى المدينة فدفع الامر الى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فان كان لكم شىء فقد بعتموه . فاما قولك ان الله اختار لك فى الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس فى الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . وأما قولك انك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الاولاد وأنك أوسط بنى هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا وقدمت نفسك على من هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا فخرت على ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غدا وما ولد فيكم مولود بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن الحسين وهو لام ولد ولقد كان خيرا من جدك حسن ابن حسن ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير

منك . ولقد علمت أن جـدك عليا حكم حكمين وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه . ثم خرج عمـك الحسين بن على على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الاقتاب بغير أوطية كالسبي المجلوب الى الشام . ثم خرج منـكم غير واحد فقتلتـكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم اذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك فى أدبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الـكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضـله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضـل على أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مسلما منهم وابتلى أبوك بالدماء . ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الاعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون اخـوته فنازعنا فيها أبوك الى عمر فقضى لنا عمر . وتوفى رسول الله ﷺ وليس من عمومته أحد حيا الا العباس فـكان وارثه دون بنى عبد المطلب . وطلب الخلافة غير واحـد من بنى هاشم فلم ينلها الا ولده فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الانبياء وبنوه القادة الخلفاء فقـد ذهب بفضل القديم والحديث . ولولا أن العباس أخرج الى بدر كرها لمات عماك طالب وعقيل جوعا أو يلحسا جفان عتبة وشيبة فأذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الاسلام والعباس يمون أبا طالب للازمة التى أصابتهم ثم فدى عقيلا يوم بدر فقد مُنّاكم فى الـكفر وفدينا كم من الاسر وورثنا دونـكم خاتم الانبياء وحزنا شرف الآباء وأدركنا من ثاركم ما عجزتم عنه ووضعنا كم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

بعد هذه المكاتبة التى لم تجد الا اظهار العيوب لم يكن الا الجد فى الامر وكان المنصور يتخوف أن يبلغ خروج محمد أهل خراسان فتفسد قلوبهم فكان يعمى الاخبار عليهم . واختار لمناضلة محمد عيسى بن موسى الذى كان السفاح جعله ولى عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور شاور عمومتك فقال امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيرى وغيرك وما هو الا ان تشخص أو أشخص وزود عيسى بوصية يحمد عليها اذ قال ياعيسى انى بعثتك الى ما بين هذين (وأشار الى جنبيه) فان ظفرت بالرجل فشم سيفك وان تغيب فضمنهم اياه حتى يأتوك به فانهم يعرفون مذاهبه . وجهز المنصور الجيش أحسن جهاز فلما وصل الى فيد بعث الى رجال من أهل المدينة فى خرق من الحرير فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم لى عيسى ومنهم ناس من آل على

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة أما عيسى فانه أقبل بجنوده حتى وصل الى المدينة وهناك أرسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكة حتى اذا أراد محمد الهرب اليها لم يجد طريقا وكان نزول عيسى على المدينة فى ١٢ رمضان سنة ١٤٥ وقبل اللقاء قدم دعوة محمد الى الخضوع فلم يجبه ثم دارت الموقعة بين الفريقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد الله ظهورا عظيما ولكن عدوه كان عظيما فلم يلبث أن قتل وظهرت الاعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوى فسلم المحاربون وكان قتل محمد لاربع عشرة ليلة خلت من رمضان .

وعند ذلك أرسل عيسى الى أبى جعفر ببشارة الفتح وبرأس محمد بن عبد

الله وأمن المدينة وأهلها وفى ١٩ رمضان شخص يريد مكة بعد أن قبض أموال بنى حسن كلها .

وكان مكث محمد منذ قام الى ان قتل شهرين و ١٧ يوما

ابراهيم بن عبدالله

هو أخو محمد دخل البصرة ودعا الناس سرا الى أخيه فبايعه كثير من أهلها وأجابه فتيان من العرب وكان ابو جعفر يظن انه يخرج بها فانه لما بلغه خروج محمد بالمدينة استشار جعفر بن حنظلة البهرانى وكان صاحب رأى فقال حصّن البصرة لأن محمدا ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقيموا شأن انفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء آل أبى طالب فلم يبق الا البصرة فاهتم بارسال الجنود واقامة المسالح بين الكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة ابراهيم

ظهر ابراهيم بالبصرة واستولى عليها وعلى ماقرب منها والاهواز وواسط ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعى أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار

أرسل أبو جعفر الى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب ابراهيم فجاء مسرعا وسار نحو البصرة وخرج ابراهيم لملاقاته فالتقيا عند باخمرى وكانت العاقبة لعيسى فقتل ابراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥

وكان محمد وأخوه ابراهيم من أحسن الطالبيين خلقا وأنظفهم تاريخا لم يعرف عنهما ما يشينهما فى معاملة الناس وفى صدق العزيمة الا أن الحظ خانهما

وللمنصور خطبة نفيسة يبرر بها عمله مع بنى الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم قال فيها :

(ياأهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وان أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم والذى لا اله الا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام على بن أبى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الامة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه و بطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الاموال فقبلها فدس اليه معاوية انى أجعلك ولى عهدى من بعدى فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه فاقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن على فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والاغراق والفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشار الى الكوفة) فوالله ما هى بحرب فأحاربها ولا سلم فأسالمها فرق الله بينى و بينها فخذلوه وأسلموه . ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه أظهروه وأسلموه وقد كان أبى محمد بن على فناشده فى الخروج وسأله أن لا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال انا نجد فى بعض علمنا ان بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمى داود بن على وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله الا فيهم و بسبب خروجهم عليهم

فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الامور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا علىّ وجبنا عن عدوهم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

انى والله يا أهل خراسان ما اتيت من هذا الامر ما اتيت بجهالة بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالا فقلت قم يافلان قم يافلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينه فدسوا اليهم تلك الاموال فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولاصغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحلت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون انى أتيت ذلك على غير يقين) ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية (وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب)

وقد بقيت بقايا بنى الحسن مشردين فى عهد أبى جعفر بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات وحبس من حبس ومن غريب ما رأيت من رواية محمد بن جرير الطبرى أن المهدى آلت اليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجه ريطة فاذا ازج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم واذا

فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان اه هذه كبرى الحوادث التى حصلت لعهد المنصور

وكانت الطريقة التى تدار بها البلاد لا تختلف عن طريقة بنى أمية فكان فى كل ولاية وال يعينه الخليفة وأعماله هى اقامة الصلاة للمسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الامن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالى تسند اليه أحيانا هذه الامور الخمسة فيكون امام القوم وقائد الجند وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلا للقيام بها وأحيانا يكون اليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضى من قبل الخليفة رأسا

ولم تكن الولايات متعينة العدد بل تارة يضم ولايتان الى وال واحد وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة فى مقدرة الوالى فكان أبومسلم مثلا واليا لخراسان كلها وبلاد الرى والجبل وعليها ولاة من قبله. وكان أكثر الولاة لعهد المنصور من أهل بيته وممن اصطنعهم من العرب والموالى ولم يكونوا يحبون أن تطول مدة الوالى فى ولاية ولا سيما فى الاطراف كمصر وخراسان خوفا ان تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من ذلك حوادث فى خراسان تلافاها المنصور بحيلته وقوته

وجميع أمور الولايات ترجع الى الخليفة الذى هو صاحب الامر المطاع ومعينوه هم

﴿ أولا ﴾ الوزير والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم فى عهد الدولة

الاموية وأول من سمى بها لعهد أبى العباس السفاح أبو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف بوزير آل محمد وأصله مولى لبنى الحرث بن كعب وكان سمحا كريما مطعاما كثير البذل مشغوفا بالتنوق فى السلاح والدواب فصيحا عالما بالاخبار والاشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة وقدقدمنا خبر اتهامه بالميل لآل على ومقتله بسبب ذلك فقال شاعر فى رثائه

ان الوزير وزير آل محمد　　أودى فمن يشناك كان وزيرا
ان السلامة قد تبين وربما　　كان السرور بما كرهت جديرا

فاستوزر السفاح بعده أبا الجهم الى أن مات السفاح وولى المنصور فكان فى نفسه منه أشياء فيقال انه سمه والصحيح أن السفاح استوزر بعد أبى سلمة خالد بن برمك جد البرامكة الذين ظهر مجدهم فى عهد هرون الرشيد وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين أقاموا دولتها وهو من ابناء رؤساء الفرس الذين كانت اليهم بيوت العبادة قبل شيوع الاسلام بالبلاد الفارسية وهو أول من اعتنق الاسلام من أهل بيته وكان خالد فاضلا كريما حازما يقظا استوزره السفاح ويقال انه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيرا مما جرى على أبى سلمة فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرا

لما تولى المنصور لم تكن للوزارة فى أيامه أبهة ولا كبير قدر لما كان موصوفا به من الاستبداد بأموره أبقى فى وزارته خالدا مدة ليست بالطويلة ثم أعفاه وولى

أبا أيوب سليمان بن أبى سليمان مخلد المورياني الخوزى

ومور يان قرية من قرى الاهواز كان فى أواخر دولة بنى أمية كاتبا لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة وكان المنصور فى ذاك الزمن ينوب عن سليمان هذا فى بعض كور فارس فاتهمه بانه احتجز مالا لنفسه فضربه بالسياط ضربا شديدا وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه أبو أيوب فاعتدها المنصور يدا له فضلا عما عرف به أبو أيوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه وتمكن منه وكان مع هذا يخشى المنصور جدا وترعد فرائصه اذا دعاه اليه روى ابن خلكان ان خالد بن يزيد الارقط قال بينا أبو أيوب جالس فى أمره ونهيه أتاه رسول المنصور فتغير لونه فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلا لذلك وقال زعموا أن البازى قال للديك ما فى الأرض حيوان أقل وفاء منك قال وكيف ذلك قال أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك فى أكفهم ونشأت بينهم حتى اذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد الا طرت ههنا وههنا وصوت وأخذت أنا مسنا من الجبال فعلمونى وألفونى ثم يخلى عنى فآخذ صيدا فى الهواء وأجىء به الى صاحبي فقال له الديك انك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم المعدة للشئ مثل الذى رأيت من الديوك لكنت أنفر منى ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكن حالى

وقد كان ما خافه أبو أيوب فان المنصور غضب عليه سنة ١٥٣ وعذبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبنى أخيه سعيدا ومسعودا ومخلدا ومحمدا وطالبهم وكانت منازلهم المناذر وقد قال فى هذه النكبة أحد شعراء العصر

قد وجدنا الملوك تحسد من أعـطته طوعا أزمـة التـدبير
فاذا ما رأوا له النهى والامـر أتوه من بأسهم بنكير
شرب الـكأس بعد حفص سليـمان ودارت عليه كف المدير
ونجـا خالد بن برمك منها اذ دعـوه من بعدها بالامـير
أسـوأ العالمين حالا لديهم من تسـمى بكاتب أو وزير

وهـذه الابيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم اذ ذاك فى نـكبات الوزراء التى لم تـكن قليلة بل قلما نجد في وزراء بنى العباس من سلم منها . ويقال ان سبب نـكبة أبى أيوب سعى أبان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته سنة ١٥٤

الربيع بن يونس

استوزر المنصور بعد أبى أيوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفان من سبى جبـل الخليل ونشأ أولاده فى الـكتابة فى عهد بنى أمية ولما جاءت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل اليه حسن الاعتماد عليه فـكانت اليه الحجابة وهى من الوظائف الكبرى فى الدولة وسيأتى شرحها

ولما قبض المنصور على أبى أيوب استوزره بعده فظل فى خدمته الى أن مات المنصور . وكان الربيع عارفا بخدمة الخلفاء محبوبا عندهم ولاسيما المنصور وكان جليلا نبيلا منفذا للامور مهيبا فصيحا كافيا حازما عاقلا فطنا خبيرا بالحساب والاعمال حاذقا بأمر الملك بصيرا بما يأتى ويذر محبا لفعل الخير

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذى أخذ البيعة للمهدى بعده وكان

ذلك مما جعل المهدى يبقيه على درجته التى كان عليها فى عهد أبيه الا أنه كان حاجبا لا وزيرا وكانت وفاته سنة ١٧٠ فى عهد الهادى ويقال انه سمه

﴿ ثانيا ﴾ الحاجب وهو موظف كبير لا يمثل أحد بين يدى الخليفة الا باذنه وقد وجد الحاجب فى عهد بنى أميـة وقد أحدثوه لما خشوا على انفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع على وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان مع ما فى فتح أبوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد روى ان عبد الملك قال لحاجبه قـد وليتك حجابة بابى الا عن ثلاثة المؤذن للصـلاة فانه داعى الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد وكان الى الحاجب التقديم والتأخير فى الاذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم

وقد ظلت الحجابة فى ارتقاء كلما ارتقت الحضارة وقدسار خلفاء بنى العباس على نمط بنى أميـة فى ذلك وكان للحاجب فى عصرهم مرتبة علية وكثيرا ما كان يستشار فى الامور التى تنزل بالخلافة

﴿ ثالثا ﴾ الـكاتب وهو الذى يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والامراء وغيرهم وكثيرا ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الـكتابة كما ورد أن المنصور لما جاءته رسالة محمد بن عبد الله قال له كاتبه دعنى أجبه عليها فقال أبو جعفر لا بل أنا أجيبه عنها اذ تقارعنا على الأحساب فدعنى واياه. وأحيانا كان يتولى الـكتابة الوزير

﴿ رابعا ﴾ صاحب الشرط وهو المحافظ على الامن وكان المنصور يختار لصاحب الشرط آمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المريبين والجناة

الا أن استبداد المنصور بالامور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من أهمية كل عامل

﴿ خامسا ﴾ القاضى وكان ينظر فى قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الاقاليم لان منصب قاضى القضاة لم يكن أنشئ بعد . ومن مشهورى قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ولد سنة ٧٤ للهجرة وتفقه بالشعبي أقام قاضيا بالكوفة ثلاثين سنة فى الدولتين الاموية والعباسية وهو معدود من فقهاء أهل الرأى وكان بينه وبين أبى حنيفة الامام وحشة يسيرة وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه فى بعض أحكامه وهو أصغر منه سنا فشكاه ابن أبى ليلى للأمير فمنعه الأمير من الفتيا وكانت وفاة ابن أبى ليلى سنة ١٤٨

هذه المناصب الخمسة هى أهم المناصب فى الدولة وجميع الوظائف الاخرى ترجع اليها وكان فى كل ولاية صورة من ذلك

الجيش

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذى يذود عن حياضها ويحمى بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الاموية عربيا محضا جنوده وقواده فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع اليهم أكبر الفضل فى ثل عرش الدولة الاموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها لذلك كان جيش الديوان فى أول عهد العباسيين مؤلفا من فريقين

﴿ الاول ﴾ الجيوش الخراسانية — الثانى الجيوش العربية وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالى وكان التنازع شديدا بين الفريقين بداعى العصبية كل يتعصب لابناء جنسه . وكان أكبر القواد المعروفين فى

أول عهد الدولة أبو مسلم الخراسانى لجيوش المشرق الخراسانية وعبد الله بن على لجيوش المغرب وأعظمها عربى من الجزيرة والشام . ولما خرج عبد الله بن على عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لحربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبى مسلم الذى نظر اليه نظرة الشريك المساوى فى القوة والسلطان ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته أن تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيرا من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته ومن أعظم قوادهم عيسى بن موسى الذى سيره المنصور لحرب محمد بن عبد الله وأخيه ابراهيم

ومن مشهورى قواده العرب. معن بن زائدة الشيبانى وهو قائد شجاع كان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ومنقطعا الى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط أبلى معه يومئذ بلاء حسنا فلما سلم يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من أظرفها انه تنكر وركب جملا يقصد البادية فبينا هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلد سيفا فقبض على خطام جمله فأناخه وقبض على يدى معن وقال أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن ابن زائدة فلما رأى الجد منه أخرج عقد جوهر ثمنه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتى بمعن فقال للاسود خذه ولا تكن سببا لسفك دمى فتأمله الاسود وقال لست أقبله حتى أسألك عن شئ فان صدقتنى أطلقتك ان الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله قال لا قال فنصفه قال لا ولم يزل حتى بلغ العشر فقال

معن نعم فقال له الاسود انا رزقى من المنصور كل شهر عشرون درهما وهـذا الجوهر قيمته ألوف دنانير وقد وهبته لك و وهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ولتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى العقد فى حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفا فقال له معن قد والله فضحتنى ولسفك دمى أهون على مما فعلت فخذ ما دفعته لك فانى فى غنى عنه فضحك وقال أردت أن تكذبنى فى مقالى والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفى ثمنا ومضى لسبيله . وما زال معن مستترا حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهـل خراسان منسوبون الى بلدة قرب قاشان وكانوا على رأى أبى مسلم صاحب دعوة بنى هاشم يقولون بتناسخ الارواح ويظهر على رغم الروايات المتناقضة أنهم كانوا يريدون الاخذ بثأر أبى مسلم ويقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور فتنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد فخرج المنصور من قصره وفى ذلك الوقت ظهر معن فانتهى الى أبى جعفر فرمى بنفسه وترجل وأدخل خرقة قبائه فى منطقته وأخذ بلجام دابة المنصور وقال أنشدك الله ياأمير المؤمنين الا رجعت فانك تكفى فلم يرجع وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعا وشرفت تلك الفعلة معنا فى نظر أبى جعفر حتى سماه أسد الرجال فقال معن والله ياأمير المؤمنين لقد أتيتك وأنا وجل القلب فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الاقدام عليهم رأيت أمرا لم أره من خلق فى حرب فشد ذلك من قلبى وحملنى على

ما رأيت منى . وكان ذلك سببا لاعطائه الامان ووصله بعشرة آلاف درهم وتوليته اليمن فمكث فيها مدة أحسن فيها السيرة فى أهلها حتى ردهم الى الطاعة والجماعة . ثم ولى فى آخر أمره سجستان . ولما كان سنة ١٥١ كان فى داره صناع يعملون له عملا فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بُست. وكان معن جوادا ممدحا وشاعره الخصيص به مروان بن أبى حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثى المشجية ومن طرف بدائهه ان معنا دخل على المنصور مرة فقال له ايه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على قوله

معن بن زائدة الذى زادت به ... شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين وانما أعطيته على قوله

ما زلت يوم الهاشمية معلنا ... بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهند وسنان

ومنهم عمرو بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذى يقول فيه بشار بن برد الشاعر

فقل للخليفة ان جئته ... نصيحا ولا خير فى المتهم

اذا أيقظتك حروب العدا ... فنبه لها عمرا ثم نم

فتى لا ينام على دمنة ... ولا يشرب الماء الا بدم

ويقول فيه أبو العتاهية

ان المطايا تشتكيك لأنها ... قطعت اليك سباسبا ورحالا

فاذا وردن بنا وردن مخفة ... واذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجه المنصور سنة ١٤١ لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بثورة

المصمغان ملك دنباوند والاصبهبذ وكان توجيهه اليها بمشورة أخى المصمغان فانه قال للمنصور يا أمير المؤمنين ان عمرا أعلم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم اليه خازم بن خزيمة وهو من القواد الكبار فدخل الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الاصبهبذ الى قلعته وطلب الامان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدا للاصبهبذ فدخل جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهي أم ابنه ابراهيم . وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به

ولم يزل عمرو بن العلاء فى رتبته الى مدة المهدى محمد بن أبى جعفر

حاضرة الخلافة

لما ولى أبو جعفر انتقل من الانبار الى الهاشمية التى أسسها أخوه أبو العباس وأقام بها الى أن عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بنى العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدنيتهم وكان يريد أن يكون بعيدا عن الكوفة فخرج يرتاد مسكنا لنفسه وجنده ويبتنى به مدينة حتى صار الى موضع بغداد وقال هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شىء يأتينا فيها كل ما فى البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجىء فيه كل شىء من الشام والرقة وما حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصرة وهو نهر بين الدجلة والفرات ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهى مدورة الشكل تقريبا وجعل لها سورين أحدهما داخل وهو سور المدينة وسمكه فى السماء ٣٥ ذراعا وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور

شرف وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعا ويليه من الخارج فصيل بين السورين وعرضه ٦٠ ذراعا ثم السور الاول وهو سور الفصيل ودونه خندق. وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل الى الفصيل الدائر بين السورين فالأول باب الفصيل والثانى باب المدينة فاذا دخل الداخل من باب خرسان عطف على يساره فى دهليز ازج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون المدخل اليه فى عرضه والمخرج منه من طوله يخرج الى رحبة مادة الى الباب الثانى طولها ٦٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ولها فى جنبتيها حائطان من الباب الاول الى الباب الثانى فى صدر هذه الرحبة فى طولها الباب الثانى وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله فى جنبتى هذه الرحبة بابان الى الفصيلين. والابواب الاربعة على صورة واحدة فى الأبواب والفصلان والرحاب والطاقات. ثم الباب الثانى وهو باب المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير الى دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله ٢٠ ذراعا وعرضه ١٢ وعلى كل أزج من آزاج هذه الابواب مجلس له درجة على السور يرتقى اليه منها. على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة فى السماء سمكها ٥٠ ذراعا مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثوانى باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان

وابتنى قصره الذى يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان.

ومد المنصور من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من

الفرات وجرهما الى المدينة فى عقود وثيقـة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ فى الشوارع والدروب والارباض وتجرى صيفا وشتاء لا ينقطع ماؤها فى وقت وجر لاهل الـكرخ أربعة أنهر يقال لأحدها نهر الدجاج وللثانى نهر القلائين وللثالث نهر طابق وللرابع نهر البزازين . والـكرخ هو أسواق المدينة التى نقلها المنصور من مدينته فى الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناها المنصور ورتب كل صنف منها فى موضعه وبنى لأهل الاسواق مسجدا يجمعون فيه ولا يدخلون المدينة وسميت الشرقية لانها شرقى الصراة . ولابى عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه فى الـكرخ

سقى أربع الـكرخ الغوادى بديمة ... وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة ... وتلك لها فضل على كل منزل

وفى سنة ١٥١ بنى المنصور الرصافة للمهدى ابنه وعمل لها سورا وخنـدقا وميدانا وبستانا وأجرى لها الماء . وربع الرصافة يسمى عسكر المهدى لان المهدى عسكر به عند شخوصه من الرى

وبنى المنصور قصره والجامع فى وسط المدينة وكان فى صـدر قصر المنصور ايوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون وفى صدر الايوان مجلس عشرون ذراعا فى عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعا فصار من الارض الى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعا . وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح

وقد انفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف ألف دينار على ماحكاه

ياقوت . وفى بعض الروايات أقل من ذلك . ولما تم بناؤها حشر اليها المنصور العلماء من كل بلد واقليم فأمها الناس أفواجا ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الاسلامية فى عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين . قال الخطيب البغدادى لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من عدد سكانها وأكثر ما كانت عمارة وأهلا فى أيام الرشيد اذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواقع موردة المشارع

الاحوال الخارجية

فى عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الى بلاد الاندلس وأسس بها الدولة الاموية الثانية وكان المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته التى جعلته وهو شريد طريد يؤسس ملكا فى هذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحمن بأمير المؤمنين بل تسمى بالامير فقط . وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافة الاسلامية الكبرى بالمشرق .

أما مملكة الروم التى كانت تحاد الخلافة الاسلامية من الشمالى فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس كما قدمنا وكانت العلاقة بين الامتين منقطعة لا تترك احداهما قتال الاخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع

فى الخلافة ارسال الجيوش تغزو الروم فى الصيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع الا لمانع .

أول ماحصل فى عهد المنصور أن الروم بقيادة ملكهم أغاروا سنة ١٣٨ على ملطية وكانت اذ ذاك من الثغور الاسلامية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية

ولما علم بذلك المنصور أغزى الصائفة عمه صالح بن على ومعه أخوه العباس ابن محمد بن على فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية وقد أقام فى استتمام ذلك الى سنة ١٣٩ . ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا فى أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا على وكانتا نذرتا ان زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله — وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهرانى

وفى هذه السنة استقر الامر بين المنصور وملك الروم على المفاداة فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين .

وفى سنة ١٤٠ غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام وأقبل قسطنطين صاحب الروم فى جيش كثيف فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم تكن صائفة بعد ذلك الى سنة ١٤٦ لاشتغال أبى جعفر بأمر محمد وابراهيم ابنى عبد الله

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى الى سنة ١٥٥ وفيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدى للمسلمين الجزية

وكانت هذه الحروب بين الطرفين اغارات لم يقصد بها فتح بل كان كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التى لصاحبه ثم يعود الى مقره

ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان مايعودون الى ما كانوا عليه

أما حدود المملكة من الجهات الاخرى فكانت فى الغالب محلا للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالا بما يبذله المنصور من الهمة فى ارسال الجنود اليها ايقظته ومعرفته بالامور على وجهها . وكان فى كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء فى الديوان ومن المطوعة وهم الذين ينتدبون للجهاد فى سبيل الله لايطلبون على ذلك أجرا الا من الله وكان الخليفة هو الذى يعين قائدهم وكان عددهم فى ذلك الوقت كثيرا

صفات المنصور وأخلاقه

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأسا ويقظة وثباتا ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم فى الاذهان

كيف كان يقضى وقته

كان شغله فى صدر النهار بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والاطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدئهم فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته الا من أحب أن يسامره . فاذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والاطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب . فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه وانصرف سماره فاذا مضى الثلث الثانى قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يدخل فيجلس فى ايوانه

كيف كان خلقه فى بيته وخارجه

قال سلامة الابرش كان المنصور من أحسن الناس خلقا ما لم يخرج الى الناس وأشد احتمالا لما يكون من عبث الصبيان فاذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون فاذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله فى ممشاه فربما عاتبنا . وقال له يوما يا بنى اذا رأيتنى قد لبست ثيابى أو رجعت من مجلسى فلا يدنون منى أحد منكم مخافة أن أعره بشئ

الجد فى بلاطه

قال يحيى بن سليم كاتب الفضل بن الربيع لم ير المنصور فى لهو قط ولا شى يشبه اللهو واللعب والعبث الا يوما واحدا فانا رأينا ابنا له يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متنكبا قوسا متعمما بعمامة مترديا ببرد فى هيئة غلام أعرابى راكبا على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال ومايهديه الاعراب فعجب الناس من ذلك وأنكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتى المهدى بالرصافة فاهدى اليه ذلك فقبل المهدى الجواليق وملأهما دراهم فانصرف بين الجوالقين فعلم أنه ضرب من عبث الملوك . وذكر عن حماد التركى قال كنت واقفا على رأس المنصور فسمع جلبة فى الدار فقال ما هذا ياحماد انظر فذهبت فاذا خادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال وأى شئ الطنبور فوصفه له فقال له أصبت صفته فما يدريك أنت ما الطنبور فقال رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره

كيف كان يهتم بعماله

قال المنصور ما كان أحوجنى الى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم كما ان السرير لا يصلح الا بأربع قوائم ان نقصت واحدة تداعى وهى : أما أحدهم فقاض لاتأخذه فى الله لومة لائم — والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى — والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى — والرابع — ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه . قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة

وولى رجلا من العرب حضر موت فكتب اليه والى البريد انه يكثر الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها فعزله وكتب اليه (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش انا انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش سلم ما كنت تلى من عملنا الى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوما مدحورا)

وظفر مرة برجل من كبراء بنى أمية فقال انى سائلك عن أشياء فاصدقنى ولك الامان . قال نعم . فقال المنصور من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم . قال من تضييع الاخبار . قال فأى الاموال وجدوها أنفع قال الجوهر . قال فعند من وجدوا الوفاء . قال عند مواليهم — فأراد المنصور أن يستعين فى الاخبار بأهل بيته ثم قال أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه

وذكر ابراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاة البريد فى الآفاق كلها كانوا

يكتبون الى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول وبكل مايقضى به القاضى فى نواحيهم وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال وكل حدث وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا صلوا المغرب ويكتبون اليه بما كان فى كل ليلة اذا صلوا الغداة فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الاسعار على حالها أمسك وان تغير شيء عن حاله كتب الى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التى نقلت ذاك عن سعره فاذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقة حتى يعود سعره ذلك الى حاله . وان شك فى شيء مما قضى به القاضى كتب اليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فان أنكر شيئاً عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه

ثباته عند الشدائد

من الخلال التى ذللت للمنصور طريق النجاح أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ الهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعا اذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالى فيعد له ما يلزم من العدة . لما تتابعت الاحداث على أبى جعفر فى عهد محمد وابراهيم ابنى عبدالله تمثل

تفرقت الظباء على خداش ... فما يدرى خداش ما يصيد

ثم أمر باحضار القواد والموالى والصحابة وأهل بيته وأمر حمادا التركى باسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الابواب ثم خرج فى يوم من أيامه حتى علا المنبر فازم عليه طويلا لا ينطق ثم قال :

مالى أكفكف عن سعد و يشتمنى ... ولو شتمت بنى سعد لقد سكنوا
جهلا علىّ وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

ثم جلس وقال

فألقيت عن رأسى القناع ولم أكن　　لأكشفه الا لاحدى العظائم

والله لقد عجزوا عن أمر أقمنا به فما شكروا الكافى ولقد مهدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا فماذا حاولوا أشرب رنقا على غصص أم أقيم على ضيم ومضض والله لا أكرم أحدا باهانة نفسى والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندى والسعيد من وعظ بغيره . قدم ياغلام ثم ركب

ولما قصد الكوفة حين علم بخرج محمد كان معه عثمان بن عمارة واسحاق ابن مسلم العقيلى وعبد الله بن الربيع المدنى فقال عثمان أظن محمدا خائبا ومن معه من أهل بيته ان حشو ثياب هذا العباسى لمكر ودهاء . وانه فيما نصب له محمد من الحروب لكما قال ابن جذل الطعان

فكم من غارة ورعيل خيل　　تداركها وقد حمى اللقاء

فرد مخيلها حتى ثناها　　باسمر ما يرى فيه التواء

فقال له اسحاق بن مسلم قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشنا وغمرته فوجدته صليبا وذقته فوجدته مرا وان من حوله من بنى أبيه لكما قال ربيعة ابن مكدم

سما لى فرسان كأن وجوههم　　مصابيح تبدو فى الظلام زواهر

يقودهم كبش أخو مصمئلة　　عبوس السرى قدلوحته الهواجر

وقال عبدالله بن الربيع هو والله خيس ضيغم شموس للاقران مفترس وللارواح مختلس وانه فيما يهيج من الحرب كما قال أبوسفيان بن الحرث

وان لنا شيخا اذا الحرب شمرت　　بديهته الاقدام قبل النوافل

ويكفيه فخرا أنه قام فى وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون فى جهات شتى فقهرهم جميعا و وطد دعائم الملك بعد أن كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر الا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراته الثلاث التى عرفت عنه فقد غدر بابن هبيرة بعد ان أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شىء يريب وغدر بعمه عبدالله ابن على بعد ان أعطاه الأمان وغدر بأبى مسلم . وربما تكون له شبهة فى القضاء على عمه وعلى أبى مسلم ولكن الذى لايليق بخليفة المسلمين وامامهم أن يستعمل الأيمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثم يغدر بهم

ومن غريب أمره أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميرى وهى أم ولديه محمد وجعفر الأكبر وكان شرط لها أن لايتزوج عليها ولا يتسرى وكتبت عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين فى سلطانه فكان يكتب الى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل اليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى اذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت اليه بمال جزيل فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد. فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقى تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم وان كان هذا الحديث فى الجملة يدلنا على أن الغدر لم يصر طبعا للمنصور وانما كانت حوادث مرت وجد له عليها السبب الذى لم يمكنه تلافيه

اقتصاده

عرف المنصور بميله الى الاقتصاد فى النفقات حتى امتلأت بالاموال خزائنه

ولذلك ترك لابنه المهدى ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفادا . ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وانما كانت أعطياته الى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون الى السرف

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ولم يزل الامر على ذلك الى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل

وعلى الجملة فلم يقم فى بنى العباس مثل المنصور فى ثباته وعلو همته وشدته على المريب واهتمامه بأمر العامة وجده فى بلاطه — وكان فوق ذلك كله فصيحا يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة

وكانت القوة الاسلامية فى يده وطوع أمره الا أنها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال فى الدولة الأموية وكانت قوة العرب لعهده لاتزال راجحة

وفاة المنصور

فى سنة ١٥٨ حج المنصور . شخص من مدينة السلام متوجها الى مكة فى شوال فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذى توفى به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه ثم صار الى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصى الربيع بما يريد وتوفى فى سحر ليلة السبت ٦ ذى الحجة سنة ١٥٨ ولم يحضره عند وفاته الا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لامير المؤمنين المهدى ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن على ومحمد بن سليمان بن على الى

مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدى بين الركن والمقام

ثم أخذ فى جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفا من أجل أنه مات محرما وصلى عليه عيسى بن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها ٢٢ سنة الا ستة أيام رحمه الله .

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت . فالذكور محمد المهدى وجعفر الاكبر وأمهما أروى بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيدالله -- وجعفر الاصغر وأمه أم ولد كردية . وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية . والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الاكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية أمها امرأة من بنى أمية وقد تزوج العالية اسحق بن سليمان بن على .

---

٣ — المهدى

هو محمد المهدى بن المنصور وأمه أورى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى ولد سنة ١٢٦ بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه اذ جاءتهم الخلافة ست سنوات . ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات . ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه سنة ١٤١ وسنه ١٥ سنة قيادة الجنود المتوجهة الى خراسان وأمره أن ينزل الرى حينما وقعت فتنة عبد الجبار ابن عبد الرحمن عامل المنصور على خراسان . وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان . ثم انصرف عائدا من خراسان سنة ١٤٤ فلقيه أبوه بقرماسين

وانصرفا جميعاً الى الجزيرة لمراقبة ثغورها — وفى هذه السنة بنى المهدى بريطة بنت أبى العباس السفاح

وفى سنة ١٤٧ ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى . ثم عاد الى الرى فأقام الى سنة ١٥١ وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجنده الرصافة وهى الجانب الشرقى من بغداد وولاه الحج سنة ١٥٣ . وفى سنة ١٥٥ أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد . ولم يزل يستعين به فى الاعمال حتى توفى فى التاريخ الذى تقدم ذكره ٦ الحجة سنة ١٥٨ (١٧ اكتوبر سنة ٧٧٥)

بيعة المهدى

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدى على بنى هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور فى حجه وجه رسولا الى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبي ﷺ وبردته التى يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة . وفى ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام . ومكث فى خلافته الى أن توفى ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بما سبذان فتكون مدته عشر سنين وشهرا ونصفا

وكان يعاصره فى بلاد الاندلس عبد الرحمن الاول مجدد الدولة الأموية فى المغرب . ويعاصره فى فرنسا شارلمان . ويعاصره فى مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه ايرينى تدبر أمره

الحال فى عهد المهدى

كانت خلافة المهدى مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام

المنصور فقد كان المنصور يؤسس ملكا له خصوم فكان يكتفى بالريبة والظنة فيعاقب بهما وفى مثل ذلك كثيرا مايؤخذ البرىء بالمذنب والمطيع بالعاصى فلما جاء المهدى كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت وان كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة فهم لايحتاجون فى الاحتراس منهم الى مثل ما كان المنصور يحتاج اليه من الشدة فان كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الامير لهم فكانوا يعرضون عليه كل يوم ولذلك كانت حياة المهدى حياة سعيدة لنفسه ولأمته وهو بعد أبيه يشبه فى كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه

فى أول ولايته أمر باطلاق من كان فى سجن المنصور الامن كان قبله تباعة من دم أوقتل ومن كان معروفا بالسعى فى الارض بالفساد أوكان لأحد قبله مظلمة أوحق فالذين أطلقهم هم من كان جرمهم سياسيا أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية فانهم ظلوا فى حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذى سيأتى ذكره فى كبار الرجال فى عهد المهدى

ومما أجراه من الاصلاح أمره ببناء القصور فى طريق مكة أوسع من القصور التى كان السفاح بناها من القادسية الى زبالة وأمر بالزيادة فى قصور السفاح وترك منازل المنصور التى بناها على حالها • وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل وهى حيضان تبنى وتملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلا على رجال القوافل الذين لاينقطع مرورهم من تلك الجهات . وأمر بتجديد الاميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع وجعل لذلك عاملا خاصا يقوم به . وأمر أن يجرى على المجذومين وأهل السجون فى جميع الآفاق حتى لايحتاج المجذومون الى المشى فى الطرق وسؤال الناس فيكونون

سبباً فى انتشار المرض وحتى يكون للمسجونين مايقوم بأودهم فلا يموتوا جوعا الا من كان له أهل يسألون عنه

وأقام البريد بين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكة واليمن بغالا وابلا ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك

ومن آثاره زيادته فى المسجد الحرام فأدخل فيه دورا كثيرة مما يحيط به ٠ ومما يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوى وكتابة اسمه مكانه . وقديما شغف الملوك بهذه الاغارات التى تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشا على الآثار فان الخلف منهم كان اذا رأى للسلف أثرا باقيا يستحق به المدح والثناء فسرعان ما يأمر بازالة اسم البانى ويضع اسمه مكانه كما حكى ذلك فى الآثار المصرية وهذا غش وتدليس على المتأخرين لايحسن بالسوقة أن يفعلوه فضلا عن الملوك ولكن هكذا كان .

وكان المهدى يجلس للمظالم وتدخل القصص اليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص وكان يدخله وحده فيأخذ مايقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض

وكان المهدى مغرى بالزنادقة الذين يرفع اليه أمرهم فكان دائما يعاقبهم بالقتل ولذلك كانت هذه التهمة فى زمنه وسيلة الى تشفى من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم . والذى أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخرسانى كان من احدى قرى مرو وكان يقول بتناسخ الارواح فاستغوى بشرا كثيرا وصار الى ما وراء النهر فوجه المهدى لقتاله عدة من القواد فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدى لمحاربته سعيدا الحرشى وضم اليه القواد فاستعد المقنع للحصار فى قلعة

كش فحاصره سعيد بقلعته ولما اشتد عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سما وأسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعا ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه

الوزارة

كان مظهر الوزارة فى عهد المهدى أوضح منه فى عهد أبيه المنصور لما كان من ركون المهدى الى وزرائه واعتماده عليهم أكثر مما كان يعتمد أبوه وكان أول وزرائه كبير الكفاءة فانه جمع له حاصل المملكة ورتب الديوان وقرر القواعد وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الاشعريين كان كاتب المهدى ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور اليه وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدى فكان غالبا على أموره لا يعصى له قولا وكان المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامتثال مشورته فلما مات المنصور وولى المهدى فوض اليه تدبير المملكة وسلم اليه الدواوين وكان مقدما فى صناعته وله ترتيبات فى الدولة منها أنه نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجا مقررا ولا يقاسم فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتابا فى الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو أول من صنف كتابا فى الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتبا فى الخراج سيأتى ذكرها

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عند المنصور اذا شكاه أحد بشكوى فلما توفى المنصور وقام الربيع بأمر بيعة المهدى بمكة عاد الى دار السلام فرأى أن يقابل أولا أبا عبيد الله قبل أن يرى المهدى فحضر اليه واستأذن عليه فلم يأذن له الا بعد صلاة العشاء ولما دخل عليه كان متكئا فلم يقم له ولم يحفل

به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكئ فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسائله عما فعل فى أمر بيعة المهدى فذهب الربيع يبتدئ بذكره فقال له قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبى عبيد الله وقال لابنه الفضل والله الذى لا اله الا هو لأخلعن جاهى ولأنفقن مالى حتى أبلغ من أبى عبيد الله كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التى كانت فى تلك الأزمنة سلما للوزارة وكان مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حيلته مطعنا فى أبى عبيد الله لأنه كان بعيدا عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم

كان لأبى عبيد الله ابن متهم فى دينه وقد أسلفنا ما كان المهدى يكره من الزندقة فرأى الربيع أن ذلك خير وسيلة للافساد بين الخليفة ووزيره فمازال يحتال فى ذلك حتى اتهم المهدى ابن أبى عبيد الله فأمر باحضاره وقال يامحمد اقرأ فذهب ليقرأ فاستعجم عليه القرآن فقال لأبى عبيد الله يامعاوية ألم تخبرنى أن ابنك جامع للقرآن فقال بلى ياأمير المؤمنين ولكنه فارقنى منذ سنين وفى هذه المدة نسى القرآن فقال (قم فتقرب الى الله بدمه) فذهب ليقوم فوقع فقال العباس بن محمد ياأمير المؤمنين ان شئت أن تعفى الشيخ ففعل وأمر المهدى بابنه فضربت عنقه

كان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدى من أبى عبيد الله لانه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع ماأراد واشتفى وزاد وتلك حال الامراء المستبدين الذين جعلوا آذانهم صيدا لكل قول فلايزال أهل الاهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم بمثل تلك التهم التى من السهل على المفسدين توجيهها لانهم لاينتظرون تحقيقا لها وكانت وفاة أبى عبيد الله معزولا سنة ١٧٠ وكان عزله سنة ١٦١

استوزر المهدى بعده أبا عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بنى سليم كان أبوه قديما كاتبا لنصر بن سيار عامل بنى أمية على خراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فاذا ليس لهم عند بنى العباس منزلة فلم يطمعوا فى خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها فكان يعقوب يجول البلاد منفردا بنفسه ومع ابراهيم بن عبد الله أحيانا فى طلب البيعة لمحمد بن عبد الله فلما ظهر محمد وابراهيم كان على بن داود كاتبا لابرهيم وكان يعقوب من الخارجين مع ابراهيم فلما قتل توارى على و يعقوب واخوتهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ عليا و يعقوب وحبسهما فى المطبق أيام حياته فلما مات المنصور وبويع المهدى منّ عليهما فيمن منّ عليه وكان معهما فى المطبق اسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة

كان المهدي يخشى الزيدية وتدبيرهم المكايد لملكه فكان يطلب رجلا له معرفة بهم ليدخل بينهم و بينه فدل على يعقوب فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلا كاملا فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب أن يدخل بينه وبينه وكان الناس فى ذلك الزمن رموه بأن منزلته عند المهدى انما كانت للسعاية بآل على وكان يعقوب يتبرأ من ذلك

قرب المهدى يعقوب بن داود اليه وولاه وزارته بعد أبى عبيد الله فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة فى المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها فى يديه

ومن علو منزلته أنه أمره المهدى بتوجيه أمنائه فى جميع الآفاق فكان لا ينفذ للمهدى كتاب الى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب الى أمينه وثقته بانفاذ ذلك

كان ذلك العلو داعيا لأن حسده موالى المهدى فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال في ذلك بشار بن برد

بنى أميــة هبوا طال نومــكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتــكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لاسحاق بن الفضل وأنه يريض له الامور وأفهموا المهدى أن اسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب في يده وفى أيدى أصحابه وانمـا يكفيه أن يكتب لهم فيثور واجميعا فى يوم واحد على ميعاد فيأخذ الدنيا لاسحاق بن الفضل فملأ ذلك قلب المهدى وصادف أن طلب يعقوب من المهدى عقب ذلك ولاية مصر لاسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدى ثم دس اليه جارية من جواريه وهبها له تتسمع مايبدر منه ثم سلم اليه علويا أمره بقتله فمن عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدى أنه قتله وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوى اليه فأرسل من جاءه به من الطريق ولما رآه يعقوب سقط فى يده وأمر المهدى باعادته الى المطبق فحبس ولم يزل محبوسا حتى أخرجه الرشيد من سجنه . وأمر المهدى بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات فى الشرق والغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك سنة ١٦٦ فكانت وزارته خمس سنوات

وفى هذه الوزارة أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الأزمة وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك أنه لما جمعت له الدواوين فكر فاذا هو لا يضبطها الا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة وولى كل ديوان رجلا فكان

واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صبيح ولم يكن لبنى أمية ديوان أزمة وفى سنة ١٦٨ ولى المهدى على بن يقطين ديوان زمام الأزمة على عمر بن بزيع

استوزر المهدى بعده الفيض بن أبى صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى فانتقلوا الى بنى العباس وأسلموا وتربى الفيض فى الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخيا مفضالا متخرقا فى ماله جوادا عزيز النفس كبير الهمة كثير الكبر والتيه واستمر الفيض وزيرا للمهدى حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ومات فى أول أيام الرشيد سنة ١٧٣

الاحوال الخارجيـة

كما كان منظر الخلافة فى داخل المملـكة باهرا كان كذلك مظهرها فى نظر الأمم الاخرى الا أنه مما يؤسف له سوء العلاقة بين الخـلافة المشرقية ببغـداد وبين أمير الاندلس عبد الرحمن الداخل فقد كان المنصور والمهدى يهتمان بأمره ويودان ازالة دولته ولـكن الشقة بين الرجلين بعيدة فلم يمكن واحدا منهما أن يجرد له جيشا يخترق صحارى أفريقية ويغزوه فى بلاد الاندلس فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر. وكان شارلمان فى ذلك الوقت مهتما باعادة الدولة الرومانية الغربية التى امحت آثارها وقد فطن الى مابين الطرفين المسلمين من العداوة فأحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الاندلس الى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذا فى الخلافة الاسلامية ويرتفع قدره على ملك الروم فى القسطنطينية وجد فى ذلك حتى تمـكن من اتمام هذه المواصلات فى عهد الرشيد كما سيأتى

أما العلاقات بين المهدى وبين ملك الروم فكانت سيئة فلم تـكن الاغارات

من الطرفين تبطل بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الاغارات من ملك الروم وكانت الحروب برا و بحرا

وفي سنة ١٦٣ احتفل المهدى بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الاجناس من أهل خراسان وغيرهم وخرج المهدى مع الجيش حتى أتى البردان فأقام به نحواً من شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطى الجنود وأخرج صلات لاهل بيته الذين شخصوا معه وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات فى عهد المهدى فتح الله عليهم فيها فتوحاً كثيرة وأبلاهم فى ذلك الوجه بلاءجميلا ففتحوا حصن سمالا بعد أن أقاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك فنزلوا ووفى لهم هارون . ثم قفل بالمسلمين سالمين الامن كان أصيب منهم بسمالا

وفى سنة ١٦٥ غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل فى بلاد الروم وكان عدد جيشه ٩٥٧٩٣ رجلا حمل لهم من العين ١٩٤٤٥٠ دينارا ومن الورق ١٤١٤٨٠٠ درهم ولم يزل هذا الجيش سائرا حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية وكان الذى يقوم بأمر الروم ايرينى أم الملك نيابة عن ابنها فجرت بينها و بين هارون مكاتبات فى طلب الصلح والموادعة واعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والأسواق فى طريقه لأنه قد دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فأجابته الى ماسأل . والذى وقع عليه الصلح بينه و بينها ٩٠٠٠٠ دينار تؤديها فى نيسان من كل سنة وفى حزيران فقبل ذلك وأقامت له الاسواق فى منصرفه ووجهت معه رسولا الى المهدى بما بذلت على

أن تؤدى ماتيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة الى ثلاث سنوات.وسلمت الأسارى . وقال مروان بن أبى حفصة فى هذه الغزوة لهارون

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلى قدورها

وكان قفول هارون من وجهه هذا فى محرم سنة ١٦٦ وقدمت الروم بالجزية معه وذلك ٦٤٠٠٠ دينار رومية و ٢٥٠٠ دينار عربية و ٣٠٠٠٠ رطل مرعزى

وفى رمضان سنة ١٦٨ أى قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا فوجه اليهم على بن سليمان بن على وهو والى الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال فى سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا . والنتيجة ان مدة المهدى كان أكثرها حربا مع المسلمين والروم وكان الفريقان فى موقف الدفاع أحيانا والهجوم أحيانا الا أن الظفر كان فى الغالب للمسلمين

غزو الهند

كان المسلمون يملكون الى نهر مهران الفاصل بين السند والهند فأراد المهدى أن يغزى جنوده بلاد الهند ففى سنة ١٥٩ وجه عبد الملك بن شهاب المسمعى فى البحر الى بلاد الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الاجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ١٥٠٠ ووجه معه قائدا من أبناء الشام فى ٧٠٠ من أهل الشام وخرج معه من مطوعة أهل البصرة ١٠٠٠ رجل ومن الاسواريين والسبابجة ٤٠٠٠ فكان تمام عدتهم ٩٢٠٠ رجل مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند سنة ١٦٠ فناهضوها بعد قدومهم بيوم

وأقاموا عليها يومين فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضا حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألجؤهم الى بلدهم فأشعلوا فيها النيران والنفط وغلبوا أهلها على أمرهم بعد أن قتل من المسلمين بضعة وعشرون رجلا ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصابتهم أمراض مات بسببها نحو ألف منهم ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلا من فارس يقال له بحر حمران فعصفت عليهم فيه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض . ويظهر أن هذه الغزوة ليست الا اغارة لاعملا يقصد به توسيع المملكة

صفات المهدى

كان المهدى لايشرب النبيذ وان كان سماره يشربونه فى مجلسه وكان يسمع الغناء

وكان من خلقه الحياء والعفو فكان اذا وقع أحد من خصومه فى يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن . كان فى حبسه موسى بن جعفر العلوى فقرأ مرة فى صلاته ﴿ فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم ﴾ فأتم صلاته والتفت الى الربيع وأمره باحضار موسى فلماجىء به قال له ياموسى انى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لى أنك لا تخرج على فقال نعم فوثق له فخلاه

وكان خليفة عادلا يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان اذا جلس للمظالم قال أدخلوا على القضاة فلو لم يكن ردى للمظالم الا للحياء منهم لكفى . قال المسور بن مساور ظلمنى وكيل

المهدى وغصبنى ضيعة لى فأتيت سلاما صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدى وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضى فأمر المهدى بادخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له ترضى بأحد هذين فقال نعم فقال تكلم فقال مساور أصلح الله القاضى ان هذا ظلمنى فى ضيعتى وأشار الى المهدى فقال القاضى ماتقول ياأمير المؤمنين قال ضيعتى فى يدى فقال مساور أصلح الله القاضى سله صارت اليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها فقال المهدى بعد الخلافة فقال القاضى أطلقها له قال قد فعلت . والعدل والحلم والعفو فى الخلفاء من الصفات التى تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم وهكذا كان المهدى مع ماامتاز به من الجود وفصاحة اللسان وكان أبوه قد علمه تعليما عربيا محضا فى صغره وقد ألف له المفضل الضبى أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم وكان يقول ماتقرب الى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هى أقرب من تذكيره اياى يدا سلفت منى اليه أتبعها أختها فأحسن ربها لان منع الأواخر يقطع شكر الأوائل

وكان المهدى ميالا الى السنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصيير منابرها الى المقدار الذى عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب بذلك الى الآفاق فعمل به . وزار مرة مولاه أبا عون وهو مريض فقال له أوصنى بحاجتك فشكره أبو عون وقال ياأمير المؤمنين حاجتى أن ترضى عن عبد الله بن أبى عون وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه فقال ياأبا عون انه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك انه يقع فى الشيخين أبى بكر وعمر ويسىء القول فيهما فقال أبو عون هو والله ياأمير

المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا اليه فان كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم » ويظهر أن هـذه الفكرة كانت موجودة حقيقة فى مبدأ الدعوة العباسية ولـكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر الطالبيين وثوراتهم المتتالية فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلى رضى الله عنه على الدرجة التى كان عليها من التأخر فى الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين

ولاية العهد

قدمنا أن المهدى نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن على وجعل محله ابنه موسى الهادى ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد

وفاة المهدى

فى سـنة ١٦٩ أراد المهدى الخروج الى جرجان فلما وصل الى ماسبذان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم فى قرية يقال لها الروذ وصلى عليه ابنه هارون لانه كان فى صحبته

---

٤ — الهادى

هو موسى الهادى بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت ملـكا للمهدى وفى سـنة ١٥٩ أعتقها وتزوجها أى بعد أن ولدت له الهادى والرشيد . ولد الهادى سنة ١٤٤ وولاه أبوه العهد وسنه ١٦ سـنة وكان يوليه قيادة الجنود فى المشرق فقادها فى نواحى جرجان لمحاربة الخارجين والمخالفين . وفى اليوم الذى توفى فيه أبوه كان مقيما بجرجان وكان

مع المهدى ابنه هارون فاخذ له البيعة على الجند وأرسل اليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك فى ٢٢ محرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) ولم يزل خليفة حتى توفى فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ (١٣ سبتمبر سنة ٧٨٦) فكانت مدته سنة وشهرا و ٢٢ يوما وسنه حين مات ٢٦ سنة

وكان يعاصره فى الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه

الحال فى عهده

كان الهادى على سنن أبيه فى كراهة الزنادقة فالتفت اليهم ونكل بهم تنكيلا والزندقة على ما يظن كانت عندهم عنوانا على ترك التدين والمجازفة فى التعبير عن الدين روى الطبرى أن ممن قتل الهادى يزدان بن باذان الكاتب ذكر عنه أنه حج فنظر الى الناس فى الطواف يهرولون فقال ما أشبههم الا ببقرة تدوس فى البيدر وله يقول العلاء بن الحداد الاعمى

أيا أمين الله فى خلقه ووارث الكعبة والمنبر

ماذا ترى في رجل كافر يشبه الكعبة بالبيدر

ويجعل الناس اذا ماسعوا حمراتدوس البر والدوسر

وروى الطبرى بسنده أن المهدى قال يوما لموسى وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه يابنى ان صار لك هذا الامر فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب مانى) فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجها من هذه الى عبادة

اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطرق تنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له فانى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين.

ومن غريب ما يروى أنه أتى للمهدى برجلين من بنى هاشم أحدهما ابن لداود بن على والثانى يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وقد اتهما بالزندقة وأقرا عنده بالزندقة فأما يعقوب بن الفضل فقال له أقربها بينى وبينك فاما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتنى بالمقاريض فقال له ويلك لو كشفت لك السموات وكان الأمر كما تقول كنت حقيقا أن تعصب لمحمد ولولا محمد ﷺ من كنت هل كنت الا انسانا من الناس

أما والله لولا أنى كنت جعلت لله على عهدا اذ ولانى هذا الامر ألا أقتل هاشميا لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت الى موسى الهادى فقال يا موسى أقسمت عليك بحقى ان وليت هذا الامر بعدى ألا تناظرهما ساعة واحدة فمات ابن داود بن على فى الحبس قبل وفاة المهدى وأما يعقوب فبقى حتى مات المهدى وقدم موسى من جرجان فساعة دخل ذكر وصية المهدى فأرسل الى يعقوب من القى عليه فراشا وأقعدت الرجال عليه حتى مات

ثورة الحسين بن على

فى عهد الهادي خرج عليه بالمدينة الحسين بن على بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ وكان والى المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن

عمر بن الخطاب وسبب خروجه أن عمر بن عبد العزيز أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعا ثم أمر بهم فجعل فى أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينة فصار اليه الحسين بن على فكلمه فيهم وقال له ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأسا فلم تطوف بهم فبعث اليهم وقد بلغوا البلاط فردهم وأمر بهم الى الحبس فحبسوا يوما وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعا وكانوا يعرضون كما قدمنا (يراقبون) ففقد الحسن بن محمد وكان الحسين بن على ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلاه لان العمرى كان كفل بعضهم من بعض فغاب عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألهما عنه فحلفا أنهما لا يدريان موضعه فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه فحلف يحيى بن عبد الله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم أنه قد جاءه به فلما خرجا قال الحسين سبحان الله مادعاك الى هذا وأين تجد حسنا حلفت له بشئ لا تقدر عليه قال والله لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال حسين تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة قال قد كان الذى كان فلابد منه وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة أيام الموسم وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم وممن كان بايع الحسين بن على ففى آخر الليل خرجوا وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مروان على العمري فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤا حتى اقتحموا المسجد . ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فاذا رأوهم رجعوا ولا يصلون فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

للمرتضي من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يفلحوا . ولما تم للحسين بن علي ما أراد انتهبت جماعته ما في بيت المال .

أقام الحسين بالمدينة بعد اعلان الخروج أحد عشر يوما ثم فارقها لست بقين من ذي القعدة قاصدا مكة

انتهى خبر الحسين الى الهادي وقد كان حج في تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من الاحداث وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب فلقيهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج . وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدة من السلاح فشمر للحرب وسار نحو الحسين بن علي فلقيه بفَخّ وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن علي الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الموقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى والثاني أخوه يحيى بن عبد الله الذي ذهب الى بلاد الديلم وسيأتي خبرهما في دولة الرشيد

ومما يحسن ذكره ما رواه الطبري قال دخل عيسى بن داب على موسى ابن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفا يلتمس عذرا من قتل من قتل فقال أصلح الله الامير أنشدك شعرا كتب به يزيد بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي رضي الله عنه قال أنشدني فأنشده

يا أيها الراكب الغادي لطيته   على عَذافرة في سيرها قُحم
أبلغ قريشا على شحط المزار بها   بيني وبين حسين الله والرحم

وموقف بفناء البيت أنشده عهد الاله وما ترعى به الذمم
عنفتم قومكم فخرا بأمكم أم حصان لعمرى برة كرم
هى التى لايدانى فضلها أحد بنت النبى وخير الناس قدعلموا
وفضلها لكم فضل وغيركم من قومكم لهم من فضلها قسم
انى لاعلم أو ظنا كعالمه والظن يصدق أحيانا فينتظم
أن سوف يتركم ماتطلبون بها قتلى تهادا كم العقبان والرخم
ياقومنا لاتشبوا الحرب اذ خمدت ومسكوا بحبال السلم واعتصموا
لاتركبوا البغى ان البغى مصرعة وان شارب كأس البغى يتخم
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم من القرون وقد بادت بها الامم
فأنصفوا قومكم لاتهلكوا بذخا فرب ذى بذخ زلت به القدم

قال فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه

صفات الهادى

كان الهادى شديد الغيرة على حرمه ويشبه فى ذلك سليمان بن عبد الملك فى بنى أمية وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها من نفوذ الامر فى عهد المهدى مالم يكن لامرأة غيرها (قالوا) كانت الخيزران فى أول خلافة موسى الهادى تفتات عليه فى أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر والنهى فأرسل اليها ألا تخرجى من خفر الكفاية الى بذاءة التبذل فانه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك وكانت الخيزران فى خلافة موسى كثيرا ما تكلمه فى الحوائج فكان يجيبها الى كل ما تسأله حتى مضى

لذلك أربعة أشهر من خلافته وانثال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو الى بابها فكلمته يوما فى أمر لم يجد الى اجابتها اليه سبيلا فاعتل بعلة فقالت لا بد من اجابتى قال لا أفعل قالت فانى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب موسى وقال ويلى على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لاقضيتها لك قالت اذا والله لا أسألك حاجة أبدا قال اذا والله لا أبالى وحمى غضبه فقامت مغضبة فقال مكانك تستوعبى كلامى والله والا فانا نفى من قرابتى من رسول الله ﷺ لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ماهذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك فى كل يوم أمالك مغزل يشغلك أومصحف يذكرك أو بيت يصونك اياك ثم اياك مافتحت بابك لملى مسلم أو ذمى فانصرفت ما تعقل ماتطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها .

وكان شجاعا قويا روى عنه أنه كان يثب على الدابة وعليه درعان

وكان يرى أن الناس لا يصلحون اذا حجب خليفتهم عنهم حتى انه قال للفضل بن الربيع الذى أقامه فى حجابته بعد أبيه لا تحجب عنى الناس فان ذلك يزيل عنى البركة ولا تلق الىّ أمرا اذا كشفته أصبته باطلا فان ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية . وقال مرة لعلى بن صالح ائذن للناس على بالجفلى لا النقرى ففتحت الابواب فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر فى المظالم الى الليل .

وكان الهادى يشرب النبيذ و يسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بنى العباس وأهل العراق يتوسعون فى أمر النبيذ فيجيزون منه ما لا يسكر

وكان كريما يشبه أباه فى أعطياته . ولم تطل مدته فى الخلافة حتى يكون له فى أحوال الأمة أثر ظاهر

ولاية العهد

كان الرشيد ولى العهد بمقتضى عقد المهدى فخطر للهادى أن يخلعه ويعهد الى ابنه جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا الى الشيعة فتكلموا فى أمر الرشيد وتنقصوه فى مسجد الجماعة وقالوا لا نرضى به . وأمر الهادى ألا يسار بحربة أمام الرشيد ومر يوما هو وجعفر بن الهادى راكبين فبلغا قنطرة من قناطرة عيساباذ فالتفت أبو عصمة الشرطى الى هارون فقال له مكانك حتى يجوز ولى العهد فقال هارون السمع والطاعة للامير فوقف حتى جاز جعفر. دعا ذلك الى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه ولا يقربه وكان يحيى بن خالد يقوم بانزال الرشيد ولا يفارقه فسعى الى الهادى أن الذى يفسد عليك هارون هو يحيى وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فدعا الهادى بيحيى وكلمه فى ذلك فقال ياأمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال له الهادى صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير. ومع ظهور اقتناع الهادى بصحة رأى يحيى لم يتركه مشيروه بل مازالوا يحرضونه على الرشيد حتى جد فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه فى الخروج الى الصيد فأذن له الهادى . فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب اليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادى شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادى الذى لم يمهله الا ثلاثة أيام . وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة فى أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول اليها وانضم الى ذلك ما أولع به الهادى من الاساءة الى الرشيد وارادة عزله أو قتله وكان الرشيد برا بها وقد يؤكد ذلك أنها أرسلت الى يحيي والهادى مريض تعلمه أن الرجل لما به وتأمره بالاستعداد لما ينبغى فاستعد يحيي للامر أكمل استعداد وهيأ الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادى وأنهم قد ولاهم الرشيد ما كانوا يلون . فلما مات الهادى نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ

٥ — الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدى وأمه أم الهادى ولد بالرى سنة ١٤٥ ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الامور . جعله أمير الصائفة سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ وفى سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الأنبار الى أطراف أفريقية فكانت الولاة ترسل من قبله وفى سنة ١٦٦ جعله أبوه ولى عهد بعد الهادى . وفى سنة ١٦٩ وهى السنة التى توفى فيها المهدى أراد أن يقدمه على الهادى لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدى دون ذلك

بويع الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادى فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ (١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه ٢٥ سنة ولم يزل خليفة الى أن توفى فى ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣ (٢٤ مارس سنة ٨٠٨) فكانت مدته

٢٣ سنة وشهرين و ١٨ يوما وكان سنه اذ توفى ٤٨ سنة

وكان يعاصره فى الاندلس الامير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢) ثم هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦)

وفى المغرب الاقصى ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (١٧٢ - ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الادريسى ثم ابنه ادريس (١٧٧ - ٢١٣)

ويعاصره فى فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧ - ٨١٤)

ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس وكانت تدبره لصغره أمه ارينى (٧٨٠ - ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من سنة ٧٩٧ الى سنة ٨٠٢ ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ - ٨١١)

الحال لعهده

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة الى أفخم درجاتها صولة وسلطانا وثروة وعلما وأدبا ارتقت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية الى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد ووصل ترف الامة فى حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر الى حد يؤذن بقرب الهبوط وكان فى عهد الرشيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الادارة والحرب فعظمت الهيبة فى الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقى كما سنبين ذلك كله مفصلا ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التى كان لها أثر فى مستقبل الامة

الطالبيون

كان الطالبيون شغل بنى العباس الشاغل فانهم كانوا لا يزالون متطلعين الى

نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لاقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد فى أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشىء من الاحسان اليهم وكان أول ما فعله معهم أن رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم الى المدينة ماخلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن على وكان أبوه الحسن فيمن أشخص . ومع هذا الذى بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وهو من الناجين من وقعة فخ التى كانت فى عهد الهادى ذهب الى بلاد الديلم فاشتدت شوكته بها وقوى أمره ونزع اليه الناس من الأمصار والكور فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب الى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد فى خمسين ألفا ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيى فكاتبه و رفق به واستماله وحذره وأشار عليه و بسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت اليه فأجاب يحيى الى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه فكتب الفضل بذلك الى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم و وجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل بذلك الى يحيى فقدم عليه و ورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقا سنية وأنزله منزلا سريا بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياما وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه و بالغ الرشيد الغاية من اكرام الفضل لذلك وسنبين خاتمة أمره فى حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيى هذا انفصال شىء من جسم الخلافة الاسلامية

ادريس بن عبدالله

كان ادريس بن عبد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ وهذا أخو يحيى سار الى مصر ومنها اتجه الى بلاد المغرب الأقصى فالتف عليه برابرة أوربه فكون هناك أول خلافة للعلويين وهى دولة الأدارسة وكان نزوله بمدينة وليلى سنة ١٧٢ وكانت بيعته فى تلك السنة ولما بلغ هارون أن أمر ادريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وأنه عازم على غزو أفريقية هم أن يرسل اليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعد الشقة واختار رجلا داهية اسمه سليمان بن جرير و يعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال فى قتل ادريس وزوده مالا وطرفا يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل الى ادريس مظهرا النزوع اليه متبرئا من الدعوة العباسية فقبله ادريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمه امافى طيب واما فى سنون وفر هارباً فمات ادريس سنة ١٧٧ ولم يكن له ولد الا أمة كانت حاملا فانتظروا وضع حملها فوضعت ولدا ذكرا سمى ادريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد

بذلك تم خروج اقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الاندلس على يد عبدالرحمن بن معاوية الأموى و بلاد المغرب الأقصى مع تلمسان على يد ادريس بن عبدالله

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جدا ومن اتهم من الناس بالميل اليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم الى بغداد فاقام بها الى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الامامية

الخارجون عليه من غير العلويين

لم يكن اضطراب الدولة و زعزعة الامن ناشئاً من العلويين وحدهم بل كان هناك فريق من الامة ينعى على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على على بن أبى طالب الى زمن الرشيد الا أن خلفاء بنى أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبى صفرة وغيره ومع ذلك فانهم لم يقدروا على افناء روحهم الثورية من الأمة فكان لايزال يخرج منهم خارجة متى ظهر فيهم ذومقدرة وكفاءة لخوض الحروب. وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولى بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم فى عهد بنى أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكرا وأعظمهم أثرا الوليد بن طريف الشارى الشيبانى كان بطلا شجاعا يقيم بالجزيرة بنواحى نصيبين خرج على الرشيد سنة ١٧٨ ففتك بابراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها الى أرمينية ثم رجع الى الجزيرة سنة ١٨٩ واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشا عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه اليه من ربيعة من يمكنه القيام فى وجهه فوقع اختياره على يزيد ابن مزيد الشيبانى وهو ابن أخى معن بن زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره متبعا فى ذلك طريقة المهلب بن أبى صفرة مع قطرى بن الفجاءة وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا انه يراعيه لأجل الرحم والا فشوكة الوليد يسيرة فوجه اليه الرشيد كتاب مغضب وقال ولو وجهت أحدا من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن

أخرت مناجزة الوليد ليبعثن اليك من يحمل رأسك الى أمير المؤمنين فلقى يزيد الوليد ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه ياوليد ماحاجتك الى التستر بالرجال ابرز لى فقال نعم والله فبرز الوليد وهو يرتجز

أنا الوليد بن طريف الشارى   قسورة لايصطلى بنارى
جوركم أخرجنى من داري

وبرز اليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعة وكل واحد منهما لايقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الأنبار سنة ١٧٩ ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح الى الرشيد . ومن ألطف الرثاء ماقالته الفارعة أخت الوليد

بتل نهاكى رسم قبر كأنه   على جبل فوق الجبال منيف
تضمن مجدا عُدمُليا وسوددا   وهمة مقدام ورأس حصيف
فياشجر الخابور مالك مورقا   كانك لم تجزع على ابن طريف
فتى لايحب الزاد الا من التقى   ولا المال الا من قنا وسيوف
ولا الذخر الا كل جرداء صِلدمِ   معاودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم   مقاما على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوما لو رد كريهة   من السرد فى خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح   وسمر القنا ينكزنها بأنوف
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى   فان مات لايرضى الندى بحليف

فقـدناك فقدان الشباب وليتنا   فـدنياك من فتياتنا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه   شجا لعدو أو نجا لضـعيف
ألا يالقـوم للحمام وللبـلى   وللأرض همت بعده برجوف
ألا يالقومى للنوائب والردى   ودهر ملح بالـكرام عنيف
وللبدر من بين الـكواكب اذهوى   وللشمس لمـا أزمعت لـكسوف
ولليث كل الليث اذ يحملونه   الى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحشى حيث أضمرت   فتى كان للمعروف غير عيوف
فان يك أوداه يزيد بن مزيد   فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفا فانى   أرى الموت وقاعا بكل شريف

خطر المشرق

وضح الخطر على الدولة من قبل المغرب فقد انتقصت أطرافها بخروج عبد الرحمن بن معاوية وادريس بن عبدالله وليس الخطر على هذا الطرف بأقل أثرا من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر مستقبل من جراء والى خراسان

استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد فى تولية على بن عيسى بن ماهان خراسان فأشار اليه ألا يفعل فخالفه الرشيد وولاه اياها فلما شخص اليها ظلم الناس وجمع مالا جليلا ووجه الى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والاموال فقعد الرشيد بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل اليه ما بعث به على ابن عيسى والى جانبه يحيى بن خالد فقال له هذا الذى أشرت ألا نوليه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان فى خلافك بركة وهو كالمازح معه اذ ذاك فقال يحيى

يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك أنا وان كنت أحب أن أصيب فى رأيي وأوفق فى مشورتى فأنا أحب الىّ من ذلك أن يكون رأى أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمى ومعرفته فوق معرفتى وما أحسن هذا وأكثره ان لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين وأسأل الله أن يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه قال وما ذاك قال أحسب أن هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلماً وتعديا ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ قال وكيف ذاك قال قد ساومنا عوناً على السفط الذى جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف ألف فأبى أن يبيعه فأبعث اليه الساعة بحاجبى يأمره أن يرده الينا لنعيد فيه نظرنا فاذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الكرخ مثل ذلك وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمرا من فعل على بن عيسى فى هذه الهدايا بأصحابها فأجمع لأمير المؤمنين فى ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعى وأيسر أمر وأجل جباية مما جمعه على فى ثلاث سنين . فوقرت فى نفس الرشيد وحفظها وأمسك عن ذكر على بن عيسي فلما عاث على بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبرائها ووجهائها الى الرشيد وكتب جماعة من كورها الى قراباتهم وأصحابهم يشكون سوء سيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه وتسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به فدعا يحيى بن خالد فشاوره فى أمر على بن عيسى وفى صرفه فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته . وكان قيل للرشيد ان على بن عيسى أجمع على خلافك فشخص الى الرى من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من

جمادى الاولى سنة ١٨٩ ثم سار الى الرى ثم الى قرماسين ثم عاد الى الرى فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه على بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف وأهدى بعد ذلك الى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضى عنه ورده الى خراسان وخرج وهو مشيع له

عاد على بن عسى الى مرو ناقما على كل من يظن أنه تكلم فيه بسوء فآذى الناس وأخذ منهم الاموال ظلما . وحصل فى تلك الظروف ان أعلن العصيان رافع بن ليث بن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم في التاريخ الأموى. أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزوا ولعبا ويتضح ذلك من السبب الذى من أجله ثار . كان يحيى بن الاشعث الطائى تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند فلما طال مقامه بها و بلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد التمست سبباً للتخلص منه و بلغ رافعا خبرها فطمع فيها وفى مالها فدس اليها من قال لها انه لا سبيل لها الى التخلص من صاحبها الا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوما عدولا وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب فتحل للازواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع و بلغ الخبر يحيى بن الاشعث فرفعه الى الرشيد فكتب الى على بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد و يقيده و يطوف به فى مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الأخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلى بن عيسى طالبا أمانه فلم يجبه على اليه وهم

بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن على وجدد طلاق المرأة وأذن له فى الانصراف الى سمرقند فانصرف اليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه اليه على بن عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقى رافع عيسى بن على وهزمه . فأخذ على فى فرض الرجال والتأهب للحرب . أما رافع فانه غلظ أمره وكاتبه أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه اليهم من يعينهم على قتل عيسى بن على فوجه صاحب الشاش فى أترا كه وقائدا من قواده فأتوا عيسى بن على فأحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لاصحابه وكان على بن عيسى فى ذلك الوقت ببلخ فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير اليها رافع فيستولى عليها وكان عيسي ابنه قد دفن فى بستان داره ببلخ أموالا عظيمة قيل انها كانت ثلاثين ألف ألف ولا يعلم بها على بن عيسى ولا اطلع عليها الا جارية كانت له فلما شخص على الى بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة فبلغ الرشيد الخبر فقال خرج من بلخ بغير اذنى وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى الى حلى نسائه فيما أنفق على محاربة رافع . فى ذلك الوقت تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لاهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل فقال له انى لم اشاور فيك أحدا ولم أطلعه على سرى فيك وقد اضطربت على ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى اذ خالف عهدى ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب اليه فأخبره أنى أمده بك وأوجه اليه معك من الأموال والسلاح

والقوة والعدة ما يطمئن اليه قلبه وتتطلع اليه نفسه وأ كتب معك كتابا بخطى فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصل الى مدينة نيسابور فاذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه ان شاء الله وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه الى على بن عيسى بخطى ليتعرف مايكون منك ومنه وهون عليه أمر على فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أنى أوجهك مددا لعلى بن عيسى وعونا له . وكان كتابه لعلى بن عيسى مبدوءا بهجر وفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته واعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه . اما عهده لهرثمة فهو.

هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين الى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله اماما له فى كل ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله وأولى العلم بكتاب الله أو يرده الى امامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده . وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفىء المسلمين فاذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك نظر فى حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يرده اليهم فان ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التى أن تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فاذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخصهم كما

تشخص العصاة من خشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه الى باب أمير المؤمنين ان شاء الله فاعمل ياأبا حاتم بما عهدت اليك فانى آثرت الله ودينى على هواى وارادتى فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك مالا يستوحشون معه الى أمر يريبهم وظن يرعبهم وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره ان شاء الله . هذا عهدى و كتابى بخطى وأنا أشهد لله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيدا . وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره الا الله وملائكته

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم الى اليوم الذى عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج على بن عيسى لمقابلته لأن هرثمة لم يدع مجالا للريبة الى قلبه فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد اليه وأول كلمة منه تنبئ عن بقيته فأسقط فى يده و بعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده و كتابه وعماله ثم ذهب هرثمة الى المسجد الجامع فخطب و بسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى اليه من سيرة الفاسق على بن عيسى وما أمره به فيه وفى عماله وأعوانه وأنه بالغ من ذلك ومن انصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء . ثم صادر جميع ما يملكه على بن عيسى

هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك الى الرشيد وقالوا انه حمل على ١٥٠٠ بعير وأرسل هرثمة الى الرشيد يخبره بما صنع . ولمـا استوفى ما عند على بن عيسى أرسله هو وأولاده في الأغلال الى بغداد

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولـكن استفحال أمره دعا الرشـيد الى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان فى ربيع الآخر سنة ١٩٣ وهى السفرة التى مات فيها بطوس فلم يصل الى ما أراد وبقى رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال

وزراء الرشيد

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك . ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الاسر تاريخا وأشهرها اسما فى صدر الدولة العباسية أحببنا أن نشرح أوليتها

أسرة البرامكة

تنسب هذه الأسرة الى جـدها برمك وهو من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران فكان برمك وبنوه سدنة له وكان برمك عظيم القدر عندهم ولم يعلم هل أسلم أولا . لما جاءت الدعوة العباسية خراسان كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهلته للسيادة ورفعة القدر فى صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال فكان مدبر أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيرا واستمر على ذلك حياة أبى العباس فلما ولى أبو جعفر أبقى خالدا فى منصبه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبى أيوب الموريانى الذى تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل الى بغداد وطواب

بالمال ذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٥٨ أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان فى ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع فى يومين ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم . وفى غد ذلك اليوم الذى أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور ولاية الموصل وكان ممدوح الولاية حسن السيرة قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلى ماهبنا قط أميرا هيبتنا خالد بن برمك من غير ان تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية ولكن هيبة كانت له فى صدورنا واستمر والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالدسنة ١٦٣ فى أوائل خلافة المهدى

أما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلا ونبلا وجودا رباه أبوه فأحسن تربيته وكان مولده سنة ١٢٠ فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنتى عشرة سنة فتربى فى كنف الدولة وكان عضد أبيه فى ملماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية اذربيجان سنة ١٥٨ قال له قد أردتك لأمر مهم من الامور واخترتك لثغر من الثغور وكانوا لايولون ثغورهم الا من كانت ثقتهم به عظيمة فسار فى ولايته سيرة أبيه فى الموصل واستمر بها حتى مات المنصور

وفى سنة ١٦٢ اختاره المهدى ليكون كاتبا ووزيراً لابنه هارون فكان معه يدبر أمره وهارون لايناديه الا بياأبى وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه فى غزوة الصائفةسنة ١٦٣ وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره وكان فى تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب

غازيا عن المهدى فكان الذى بين الربيع ويحيي على حسب ذلك وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما . ولما ندب المهدى يحيي لذلك المهم قال له انى قد تصفحت أبناء شيعتى وأهل دولتى واخترت منهم رجلا لهارون ابنى أضمه اليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خيرتى له ورأيتك أولى به اذ كنت مربيه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره

ولما ولى المهدى ابنه هارون المغرب كله سنة ١٦٤ من الأنبار الى أفريقية أمر يحيي بن خالد أن يتولى ذلك فكانت اليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك الى أن مات المهدى ولما ولى الهادى أبقاه على حاله مع هارون حتى اذا خطر ببال الهادى أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فانه هو الذى جرأه على الاستمساك بحقه الذى منحه اياه أبوه المهدى وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فقال أليس يترك لى الهنىء والمرىء فهما يسعاننى وأعيش مع ابنة عمى وكان هارون يجد بأم جعفر وجدا شديدا فقال له يحيى وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا فى يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الاجابة . فسعى الى الهادى بيحيى وقيل له انه ليس عليك من هارون خلاف وانما يفسده يحيي بن برمك فأرسل اليه الهادى وقال له لم تدخل بينى وبين أخى وتفسده على فقال يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما انما صيرنى المهدى معه وأمرنى بالقيام بأمره فقمت بما أمرنى به ثم أمرتنى بذلك فانتهيت الى أمرك . ثم قال له لما كلمه فى أمر الخلع يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته

فقال صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير . ومما قاله له فى هـذا ياأمير المؤمنين أرأيت ان كان الامر أسأل الله ألا نبلغه وان يقدمنا قبله أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم و يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم — قال والله ماأظن ذلك — قال ياأمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو اليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك — فقال له نبهتنى يايحيى — قال وكان يقول — ما كلمت أحدا من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له لو أن هذا الامر لم يعقد لاخيك أما كان ينبغى أن تعقده له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى له ولكن أرى أن تقر هذا الامر ياأمير المؤمنين على حاله فاذا بلغ جعفر و بلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه و كان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادى قوله . ولكن يظهر أن الذى كان يحرك الهادى الى خلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذن فى الخروج الى الصيد فاذا خرجت فاستبعد ودافع الايام ففعل ذلك هارون وخرج الى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادى أمره وغمه احتباسه وجعل يكتب اليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه وكان الذى ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب الى أبيه بكل مايحدث

ولما لم ير الهادى يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من اكرام ولا اقطاع ولا صلة بعث اليه يتهدده بالقتل ان لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التى مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال

له قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى اليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الامور على ما ترى ودفع اليه خاتمه وفى ذلك يقول ابراهيم الموصلى

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذى الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هى الناظرة فى الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها

كان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة فى دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومنتجع الرواد . وقد ضم اليه الرشيد فى سنة ١٧١ خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان

وكان ليحيى أربعة من الاولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى بنو يحيى

فاما الفضل فهو أكبر الاخوة ولد أواخر سنة ١٤٨ قبل ولادة الرشيد بايام وقد أرضعت كلا منهما أم الآخر ولما شب كان لابيه يحيى كما كان يحيى لابيه خالد ولما ولى أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه فى جلائل أعماله ولما ولد محمد الامين جعله الرشيد فى حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أبا

وفى سنة ١٧٦ كان خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتال فى أمر يحيى حتى استنزله من معقله بامان من غير أن يريق فى ذلك نقطة دم الاحسن السياسة وقد

عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية فى اكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبى حفصة

ظفرت فلا شلت يد برمكية | رتقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه | فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة | من المجد باق ذكرها فى المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزا | لكم كلما ضمت قداح المساهم

وقال أبو ثمامة الخطيب

للفضل يوم الطالقان وقبله | يوم أناخ به على خاقان
مامثل يوميه اللذين تواليا | فى غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد الفة هاشم | بعد الشتات فشملها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم | من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التى عن لبسها | عظم النبا وتفرق الحكمان

وفى سنة ١٧٨ ولاه الرشيد خراسان وثغورها فأحسن السيرة بها وبنى بها الرباطات والمساجد . غزا ماوراء النهر فخرج اليه ملك اشروسنة وكان ممتنعا . ويقال انه اتخذ بخراسان جندا من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم له وان عدتهم بلغت ٥٠٠٠٠٠ رجل وأنه قدم منهم بغداد عشرون الف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفى ذلك يقول مروان ابن أبى حفصة

ما الفضل الا شهاب لا أفول له | عند الحروب اذا ما تأفل الشهب
حام على ملك قوم غر سهمهم | من الوراثة فى أيديهم سبب

أمست يدلبنى ساقى الحجيج بها | كتائب مالها فى غيرهم أرب
كتائب لبنى العباس قد عرفت | ماألف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين فى عدادهم | من الألوف التى أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم | أولى بأحمد فى الفرقان ان نسبوا
ان الجواد ابن يحيى الفضل لاورق | يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له من شد مئزره | الا تمول أقوام بما يهب
كم غاية فى الندى والبأس أحرزها | للطالبين مداها دونه تعب
يعطى اللهاحين لا يعطى الجواد ولا | ينبو اذا سلت الهندية القضب
ولا الرضا والرضا لله غايته | الى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى ما يعادله | غيث مغيث ولا بحر له حدب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد الى بستان أبى جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك سنة ١٧٩

كان الفضل فى جميع الاعمال التى أسندت اليه كفأ نزيها وكان من أكثر البرامكة كرما وكان أكرم من أخيه جعفر . وكان الناس يسمونه فى بدء أعماله بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس كافى المهمات حتى كانت النكبة الآتى ذكرها

وأما جعفر فهو ثانى أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الامر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الاخلاق طلق الوجه ظاهر البشر وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه

فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوى الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه الى أبى يوسف يعقوب القاضى حتى علمه وفقهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل وقال الرشيد يوما ليحيى ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرا بذلك فقال يحيى لان الفضل يخلفنى قال فضم الى جعفر أعمالا كأعمال الفضل فقال يحيى ان خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل اليه أمر دار الرشيد فسمى بالوزير الصغير وقال له يوما قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت اليه فكتب يحيى الى الفضل قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك فأجابه الفضل قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه فقال جعفر لله در أخى ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل عنده وأوسع فى البلاغة ذرعه

وفى سنة ١٧٦ ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الاعمال فى دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران

وفى سنة ١٨٠ هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له اما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر بل أقيك بنفسى فشخص فى جلة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحا ولا فرسا فعادوا الى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك النائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك

فقال منصور النمري

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها
اذا جاش موج البحر من آل برمك ... عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلافى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد ... تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية ... دموغ لهام الناكثين انحدارها
غدوت تزجى غاية فى رؤسها ... نجوم الثريا والمنايا ثمارها
اذا خفقت راياتها وتجرست ... بها الريح هال السامعين انبهارها
فقولوا لاهل الشام لا يسلبنكم ... حجاكم طويلات المنى وقصارها
فان أمير المؤمنين بنفسه ... أتاكم والا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ... وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطو أسرار الخليفة دونه ... فعندك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ... ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب باحياء الامور اذا التوت ... من الدهر أعناق فأنت جبارها
اذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ... ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة ... يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لاهل الشام ياويل أمها ... أتاها حياها أو أتاها بوارها
فان سالموا كانت غمامة نائل ... وغيث والا فالدماء قطارها
أبوك أبو الاملاك يحيى بن خالد ... أخو الجود والنعمى الكبار صغارها

كأين ترى فى البرمكيين من ندى ومن سابقات مايشق غبارها
غدا من نجوم السعد من حل رحله اليك وعزت عصبة أنت جارها
عذيرى من الاقدار هل عزماتها مخلفتى عن جعفر واقتسارها
فعين الأسى مطروقة لفراقه ونفسى اليه ماينام ادكارها

ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له اكراما وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم

وفى هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان يخلفه فى هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة

وفى سنة ١٨٢ بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين وضمه الى جعفر بن يحيى ليكون المدبر لامره كما كان الأمين مع الفضل بن يحيى وقد جعل الرشيد الامين والى المغرب كله والمأمون والى المشرق كله وكانت الولاة التى ترسل الى الاقاليم من قبل ولى العهد

وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم وأشدهم بأسا لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر الا أنه كان فى تلك الدولة عاملا سريا وقائدا باسلا ولاه الرشيد الشام سنة ١٧٦ لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التى ذهب فيها أخوه جعفر وضم اليه من القواد والاجناد ومشايخ الكتاب جماعة فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر الى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم الى يحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد فقيل فى موسى بن يحيى

قد هاجت الشام هيجا يشيب رأس وليده

فصب موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشام لما أتى بسنخ وحيده
هو الجواد الذى بذ كل جود بجوده
أعداه جود أبيه يحيي وجود جدوده
فجاء موسى بن يحيي بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحى منثوره وقصيده
من البرامك عود له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا خفيفه ومديده

وقد اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب فى اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم اياه وأنه يكاتبهم و يعمل على الانسلال اليهم والوثوب به معهم فوقر ذلك فى نفس الرشيد عليه وأوحشه منه فلما قدح على بن عيسى فيه أسرع ذلك فى الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار الى خراسان كما قيل له فلما صار الى الحيرة فى حجه سنة ١٨٧ وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيي فى أمره ولم يكن الرشيد يردها فى شيء فقال يضمنه أبوه فقد رفع الى فيه فضمنه يحيي ودفعه اليه ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه

وأما محمد بن يحيي فكان سريا بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لاخوته

كانت هذه الاسرة فى عهد الرشيد غرة فى جبين دولته جمعوا من الصفات

المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام كما كانوا مبرزين فى حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الاولين

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاتها وقوادها الى هذه السنة سنة ١٨٧ التى نسطر فيها أخبار نكبتها على يدى الرشيد

نكبة البرامكة

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم فى تعرف أسباب ايقاع الرشيد بهم . لم يكن هذا العمل بدعا فى الدولة العباسية فان للمنصور والمهدى سلفا فى ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره أبى أيوب المورياني فقتله هو وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدى بوزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدى من الولوع بالثانى حتى كتب للجمهور انه اتخذه أخا فى الله . كل هذا قد سبق به الرشيد

يرى المؤرخ أن هذا طبيعة الملك الاستبدادى يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذى لا يشارك والحول الذى لا يقاوم واليد الطولى التى لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد فى الانتفاع بتلك السابقة لهم فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبه اليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه اليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على

سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة فى قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الايقاع بمن كان سيفه الذى لا ينبو فى الخطوب اشفاقا من هذا السيف أن ينقلب عليه فيقتنص منه ملكه الذى دونه كل شىء وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه الا قليلا من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الاحمر لانهم يتغلبون على ما فى طبع الانسان من عدم الوقوف عند حد فى العظمة والتكاثر فى الاموال على أن أبا عبيد الله وزير المهدي مع نزاهته وبعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدى انه زنديق فقتله المهدى فكان ذلك سببا للوحشة بين المهدى ووزيره

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدى وكان الرشيد يدعوه يا أبى وكانت أم الفضل بن يحيى ظئرا للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن يحيى فكان يحيى هو الذى يكفله ويقوم بتربيته من لدن ولد الى أن شب . وهو الذى كانت له اليد الطولى فى اخفاق المساعى التى بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادى فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم اليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسى فاجتمعت له الوزارتان وأعانه فى العمل أبناؤه الا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعا من الكفاية حتى روى القاضى يحيى بن أكثم قال سمعت المأمون

يقول لم يكن كيحيى بن خالد و ولده أحد فى الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة قال القاضى فقلت ياأمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ففيمن الشجاعة فقال موسى بن يحيى وقد رأيت أن أوليه ثغر السند

ولم يكونوا فى الاتصال بالرشيد على درجة واحدة فكان يحيى صاحب المقام الارفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله فى سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو اليه الشباب من المنادمة وكان الفضل فى الاخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه فكان الفضل يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ماشربته وكان مشغوفا بالسماع . أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد فكان لذلك يدخل فى منادمته حتى كان أبوه ينهاه و يأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه اليه و يقال انه كتب اليه حين أعيته الحيلة فيه . انى انما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وان كنت لأخشى أن تكون التى لا شوى لها . وقد كان يحيى قال للرشيد ياأمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتى وأمن لك على . قال الرشيد ياأبت ليس بك هذا ولكنك انما تريد أن تقدم عليه الفضل . ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيما جدا حتى كان يقضى أعظم الامور فلا يرد له الرشيد قضاء

رآهم الناس بعد هذا العز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد ابن يحيى وأخى الفضل وحبيب جعفر . فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار فى

آخر ليلة من محرم سنة ١٨٧ بعدأوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدى ولديه الامين والمأمون — ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق. ويحيي ابن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون. ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق — ورأوا كتبا أرسلت الى جميع العمال فى نواحى البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم. وأمرا بالنداء فى جميع البرامكة أنلا أمان لمن آواهم الا محمد بن خالد بن برمك و ولده وأهله وحشمه فان الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسبين ذلك لحادث فجائى حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير وأداه الى هذا العمل شأن الناس فى الاعصار كافة اذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع

نسب ذلك بعضهم الى مجرد الملل والغيرة . سئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم مايوجب بعض عمل الرشيد بهم ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما رأوا مثلها عدلا وأمنا وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهما. ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الادلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيي فانه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن

وأظهروا القبائح حتى كان ما كان

ونسب ذلك بعضهم الى حادثة يحيي بن عبد الله بن الحسن الذى روينا حديث ذهابه الى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيي اياه بأمان الرشيد — ذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال من قال ان الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيي بن عبد الله بن حسن فلاتصدقه وذلك أن الرشيد دفع يحيي الى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالى فسأله عن شئ من أمره فأجابه الى أن قال اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم فوالله ماأحدثت حدثا ولا آويت محدثا فرق عليه وقال اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأرد اليك أو الى غيرك فوجه معه من أداه الى مأمنه و بلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه فعلا الأمر فوجده حقا وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لايعبأ بخبره وقال وما أنت وهذا لا أم لك فلعل ذلك عن أمرى فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه و يحادثه الى أن كان آخر مادار بينهما أن قال مافعل يحيي بن عبد الله قال بحاله ياأمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال — قال بحياتى — فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا فهجس فى نفسه أنه قد علم بشئ من أمره فقال لا وحياتك ياسيدى ولكن أطلقته وعلمت أنه لاحياة به ولا مكروه عنده قال نعما فعلت ماعدوت ما كان فى نفسى فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة ان لم أقتلك فكان من أمره ما كان

ونسب ذلك بعضهم الى حديث العباسة بنت المهدى التى رواها الطبرى عن زاهر بن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليها ونقصوا منها وهى حكاية مشهورة ونحن نريد أن نبين أن نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هى حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضا

كان من موالى العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس فى حياة المنصور والمهدى ولم يكن للفضل فى أول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئا ففى اليوم الذي توفيت فيه سنة ١٧٤ دعا به هارون فقال له وحق المهدى انى لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعنى أمى فأطيع امرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل بن الربيع لاسماعيل بن صبيح الكاتب أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب اليه وآخذه ولكن أرى ان يبعث به . وهذه مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء فأحب أن يتخذ عندهم يدا حتى لايتخوفونه . وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى

فى سنة ١٧٦ حصلت حادثة يحيي بن عبد الله فاستنزله الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر الى بغداد وأكرمه الرشيد لكن الزمان لم يطل على هذا الاكرام فان السعاة رفعوا عن يحيي مايريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء فرفع اليه أن يحيي لايزال يدعو الى نفسه وانما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية فى ذلك بكار بن عبد الله الزبيرى وكان شديد البغض لآل أبى طالب ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعايات أن

حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه الا خيفة أن يقول الناس فيه شيئا لما كتبه من كتاب الامان الذى استنزل به يحيى فأراد أن يأخذ من العلماء قولا فى أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البخترى القاضى ومحمد ابن الحسن الفقيه صاحب أبى يوسف فأما محمد بن الحسن فانه قال له ماتصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولى كان آمنا وليس هذا الجواب موافقا لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد - وأما أبو البخترى فقال ان الأمان منتقض وأقبل يعد وجوه نقضه ولذلك قال له الرشيد أنت قاضى القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الأمان

و يظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة للسعى بيحيى بن عبد الله عند الرشيد لأن فى قتله اذلالا لمن كان السبب فى استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذى أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذي كان يحرك السعاة بيحيى أن الرشيد لما كان يحاج يحيى نظر يحيى الى الفضل بن الربيع وقال له - هذا والله من آفاتك

كان من المفهوم بعد ذلك أن يجتهد البرامكة فى تخليص يحيى ففعل جعفر فعلته التى قدمنا ذكرها والرشيد وان كان يحتمل لجعفر كثيرا من الادلال لايحتمل له هذا لانه متعلق بملكه - ومن الغريب ماورد فى هذه الحادثة من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاص خدمه جاسوسا يعلم أخباره و يلقى بها اليه

كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة فى أخص صفات الوزراء وهى الاخلاص لملوكهم وذلك طعن منفذ . وقر فى نفس الرشيد شيء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدى وهى التهمة التى استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبى عبيدالله وزير المهدى حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالبهم وأثرتهم وينفس عليهم ماصار اليهم من عظيم الأموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم فى الآخر الظنون روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال انى لقاعد فى مجلس الرشيد اذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا اذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفا فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال يا جبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا اذنك فقلت لا ولا يطمع فى ذلك قال فما بالنا يدخل علينا بلا اذن فقام يحيى فقال ياأمير المؤمنين قدمنى الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وماهو الا شيء كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى حتى ان كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه مجرداً حيناً وحيناً فى بعض ازاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب واذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الاذن أو الثالثة ان أمرنى سيدى بذلك قال فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجها وعيناه فى الارض مايرفع اليه طرفه ثم قال — ماأردت ماتكره ولكن الناس يقولون . قال جبريل فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج

يحيى . وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبى جعفر قال دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان اليه فقال الرشيد لمسرور الخادم مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى اذا دخل الدار قال فدخل فلم يقم اليه أحد فاربد لونه قال وكان الغلمان والحجاب اذا رأوه أعرضوا عنه قال فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه و بالحرى ان سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مرارا .

وحدث يعقوب بن اسحاق عن ابراهيم بن المهدى قال أتيت جعفر بن يحيى فى داره التى ابتناها فقال أما تعجب من منصور بن زياد قال قلت له فيماذا قال سألته هل ترى فى دارى عيبا قال نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة قال ابراهيم فقلت له الذى يعيبها عندى أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شىء لا آمنه عليك غداً بين يدى أمير المؤمنين — قال هو يعلم أنه قد وصلنى بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ماعرضنى له قال قلت ان العدو انما يأتيه فى هذا من جهة أن يقول له ياأمير المؤمنين اذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التى تنوبه وماظنك ياأمير المؤمنين بما وراء ذلك وهذه جملة سريعة الى القلب والوقف على الحاصل منها صعب قال ان سمع منى قلت ان لأمير المؤمنين نعما على قوم قد كفروها بالستر أو باظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت الى نعمته عندى فوضعتها فى رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا فانظروا . وحدث زيد بن على عن ابراهيم بن المهدى أن جعفر بن يحيى قال له يوما (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذى قربه منه) انى قد استربت بأمر هذا الرجل (يعنى الرشيد) وقد ظننت أن ذلك

السابق سبق لى منه فاردت أن أعتبر ذلك بغيرى فكنت أنت فارمق ذلك فى يومك هذا وأعلمنى ماترى منه قال ابراهيم ففعلت ذلك فى يومى ·

فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت الى شجر فى طريقى فدخلتها ومن معى وأمرتهم باطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بى واحدا بعد واحد فأراهم ولا يرونى حتى اذا لم يبق منهم أحد اذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجر قال اخرج ياحبيبى قال فخرجت فقال ماعندك فقلت حتى تعلمنى كيف علمت أنى ههنا قال عرفت عنايتك بما أعنى به وأنك لم تكن لتنصرف أو تعلمنى مارأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفا فى مثل هذا الوقت وليس فى طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بانك فيه ثم قال فهات ماعندك قلت رأيت الرجل يهزل اذا جددت و يجد اذا هزلت قال كذا هو عندى فانصرف ياحبيبى

من كل هذا يتبين أن النفور والريبة وقعت فى قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها الا ما ركز فى نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة وكان الرشيد يتحين الفرصة للايقاع بهم ولا سيما جعفرا لما كان منه من تخليص يحيى بن عبدالله وهذا دليل عدم الاخلاص للرشيد وللبيت العباسى . وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب اليه خير قيام وشايعه فى ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه فى أمر المأمون فانه هو الذى قام فى ولايته العهد وجعله مناظرا لابنها الأمين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سببا فى الايقاع بين الأخوين اذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة

فى سنة ١٨٦ حج الرشيد ولما انصرف من حجه أتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضى عنه بعد غضبه عليه وفى غاية المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفرا وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد فى دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون اليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريهم ولم تزل حالهم سهلة الى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالتثقيف بسخطه وجدد له ولهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم

حادثة عبد الملك بن صالح

هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس وهو فى درجة السفاح والمنصور نسبا رفع الى الرشيد أنه يطلب الخلافة و يطمع فيها وأن البرامكة كانوا له عونا والذي سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر الى الرشيد فلما دخل عليه قال « أكفرا بالنعمة وجحودا لجليل المنة والتكرمة » فقال يا أمير المؤمنين « لقد بؤت اذا بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وما ذاك الا بغى حاسد نافسنى فيك مودة القرابة وتقديم الولاية انك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل فى حكمها والتثبت فى حادثها والغفران لذنوبها » فقال له الرشيد « أتضع لى من لسانك وترفع لى من جنانك هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه » فقال عبد الملك « أعطاك ماليس فى عقده ولعله لا يقدر أن يعضهنى ولا يبهتنى بما لم يعرفه منى » وأحضر

قمامة فقال له الرشيد تقدم غير هائب ولا خائف قال أقول انه عازم على الغدر بك والخلاف عليك — فقال عبد الملك أهو كذلك ياقمامة قال نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين — فقال عبد الملك كيف لا يكذب على من خلفى وهو يبهتنى فى وجهى — فقال له الرشيد وهـذا ابنك عبد الرحمن يخبرنى بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك فقال عبد الملك هو مأمور أو عاق مجبور فان كان مأمورا فمعذور وان كان عاقا ففاجر كفور أخبر الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله « ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لـكم فاحذروهم » قال فنهض الرشيد وهو يقول أما أمرك فقد وضح ولـكنى لا أعجل حتى أعلم الذى يرضى الله فيك فانه الحكم بينى وبينك — فقال عبد الملك رضيت بالله حكما و بأمر أمير المؤمنين حاكما فانى أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه

فلما كان بعد ذلك جلس مجلسا آخر فسلم عبد الملك لما دخل فلم يرد عليه الرشيد فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا فقال الرشيد له — قال لان أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال وماذاك قال لم ترد على السلام نصف نصفة العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وايثارا للعدل واستعمالا للتحية ثم التفت نحو سليمان بن أبى جعفر وقال

أريد حياته ويريد قتلى — أما والله لـكأنى أنظر الى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع وكأنى بالوعيد قد أورى نارا تستطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤس بلا غلاصم فمهلا مهلا بى والله سهل لـكم الوعر وصفا لـكم الـكدر وألقت اليكم الامور أثناء أزمتها فنذار لـكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل.

فقال عبد الملك . اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيتك التى استرعاك ولاتجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم وتركت عدوك مشتغلا فالله الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعد أن بلته بظن أفصح الكتاب لى بعضه أو ببغى باغ ينهش اللحم ويلغ فى الدم فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الامور وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته ببنان ولسان وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى وزحل

فقال له الرشيد أما والله لولا الابقاء على بنى هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث الى يحيى بن خالد وهو فى السجن ان عبد الملك بن صالح أراد الخروج على ومنازعتى فى الملك وقد علمت ذلك فأعلمنى ما عندك فيه فانك ان صدقتنى أعدتك الى حالك فقال والله ياأمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شىء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لان ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطانى والخير والشر كان فيه على ولى فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع فى ذلك منى وهل كنت اذا فعلت ذلك به يفعل بى أكثر من فعلك أعيذك بالله أن تظن بى هذا الظن ولكن كان رجلا محتملا يسرنى أن يكون فى أهلك مثله فوليته لما أحمدت من من مذهبه وملت اليه لأدبه واحتماله — فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال ان أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل — فقال له أنت مسلط علينا فافعل

ما شئت على أنه ان كان من هذا الامر شئ فالذنب فيه لى فبم يدخل الفضل فى ذلك فقال الرسول للفضل قم فانه لابد لى من انفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له ألست راضيا عنى قال بلى فرضى الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام فلما لم يجد عندهما من ذلك شيأ جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده

سقنا هذا لندل على أن التهم التى وجهت الى البرامكة كافة ولا سيما جعفرا سياسية محضة وفى القليل منها ما يكفى عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم واذا أضيف الى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه فى سلطانه ويشاركه فى نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التى يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التى سار عليها بنو العباس فقد كان مما عده المنصور على أبى مسلم من ذنوبه وهو من هو فى الدولة وتشييد بنيانها أنه كتب اليه يخطب أمينة بنت على ابن عبد الله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد فى أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سرى كهذا سببه خسيس هذا بعيد جدا

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه الى درجة الوساوس حتى جعله ذلك أذنا يسمع لكل واش ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء ان كتبوا أجادوا وان قادوا الجيوش سدوا الثغور وان ولوا عملا أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين فما

هى الاوشاية تطرق أذنه حتى تراه قد أخذ بحلاقيمهم فأوردهم شر مورد لا يبالى بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه مايرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وان لم يكن لهم فى ميدان الصالحين أثر فقد بقى للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعداوة بين الامين والمأمون كما سيجىء لان الرجل مفسد معتاد على اختلاق الاخبار ويرى ذلك يحسن فى آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر عن ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الامة بينها وانا نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الامم وسوس عظامها

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع فلم يسد المكان الذى سدوا

العلاقات الخارجية

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شارلكان الذى كان يميل الى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الأمويين بالأندلس وحدثت فى عهده دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبق

مع الروم

من أعمال الرشيد أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسميت العواصم وجعل قاعدتها منبجا وأسكنها عبد الملك بن صالح سنة ١٧٣ وسميت العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وكان من هذه العواصم دُلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت فى زمن الرشيد على يد أبى سليم فرج

الخادم التركى ونزلها الناس . وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ابن صالح ووصل سـنة ١٧٥ الى اقريطية . وفى سنة ١٨١ غزا الرشيد الصائفة بنفسه فافتتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نـكبة البرامكة سنة ١٨٧ فولى بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجا فغزا الروم وأناخ عـلى حصن قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل ٣٢٠ رجلا من أساري المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم الى ذلك ورحل عن حصنى قرة وسنان

كان يملك الروم فى ذلك الوقت رينى وكانت فى أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ سنة ٧٨٠ ثم استبدت بالملك سنة ٧٩٠ فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رأته من الحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوئها العداوة لان شارلمان كان يريد توسيع سلطانه واعادة دولة الرومان الى بهجتها التى كانت لها فى القدم. وفى سنة ٨٠٢ نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك وملـكت مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملـكتين ثم كتب الى الرشيد من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب . أما بعد فان الملـكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله اليها لـكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت

كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك والا فالسيف بيننا و بينك — فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدا أن ينظر اليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأى على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام) ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وأفاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه الى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديدا فيئس نقفور من رجعته اليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لأحد اخبار الرشيد بذلك اشفاقا عليه وعلى أنفسهم من الكرة فى مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف فقال

نقض الذى أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه ... فتح أتاك به الاله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنقض عنه وافد و بشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفى النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها ... بأكفنا شعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العسا كر قافلا ... عنه وجارك آمن مسرور

نقفور انك حين تغدر أن نأى … عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت … هبلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك فى زواخر بحره … فطمت عليك من الامام بحور
ان الامام على اقتسارك قادر … قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الامام وان غفلنا غافلا … عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه … فعدوه أبدا به مقهور
يامن يريد رضا الاله بسعيه … والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش امامه … والنصح من نصحائه مشكور
نصح الامام على الانام فريضة … ولاهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من انشاده قال أوقد فعل نقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا له فى ذلك فكر راجعا فى أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى وبلغ ماأراد فقال أبو العتاهية

الانادت هرقلة بالخراب … من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا … ويرقب بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها … تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم … وأبشر بالغنيمة والاياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك . وفى سنة ١٨٩ حصل فداء بين المسلمين والروم فلم يبق بارض الروم مسلم الا فودى به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم فقال مروان بن أبى حفصة يمدح الرشيد

وفكت بك الأسرى التى شيدت لها … محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعيا المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها

. وفي سنة ١٩٠ غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقلة وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم وكان دخلها في ١٣٥ ألف مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له . وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال فأضربها وسبي أهلها بعد مقام ثلاثين يوما عليها وولى حميد بن معيوف سواحل الشام الى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها

ثم سار الرشيد الى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق دينارين وكتب مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتابا نسخته — لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليك أما بعد أيها الملك ان لي اليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هنية يسيرة أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابني فان رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته —واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت و زينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلا فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع الى رسول نقفور وبعث اليه بما سأل من العطر وبعث اليه التمور والاخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد فأعطاه نقفور وقر دراهم اسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومئة ثوب ديباج ومئتي ثوب

بزيون واثنى عشر باز ياوأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين ــ وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذى الكلاع ولا صملة ولاسنان واشترط الرشيد عليه الا يعمرهرقلة وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار

وفى سنة ١٩١ غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم اليه ثلاثين ألفا من أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه النفقات وجميع الامور ماخلا الرياسة ومضى الرشيد الى درب الحدث فرتب هنالك عبدالله بن مالك ورتب سعيدبن سلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها . وبعث محمد بن يزيد بن مزيد الى طرسوس — فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف الى الرقة

وعلى الجملة فان قوة المسلمين كانت فى عهد الرشيد ظاهرة ظهورا بيناً على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية

العلاقة مع أوربا

كان فى عهد الرشيد شارلمان بن بابن وكان ملكا على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التى كانت فى جرمانيا الى الدين العيسوى بعدأن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وايتاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير فى الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسويين فى البلاد الاسلامية وخصوصاً زائرى القدس فأرسل الى بغداد سفراء يستجلبون رضا هرون الرشيد وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ماتقدم وهو اضعاف الدولة الأموية بالأندلس ففاز سفير

شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك لأنه عده فوزا على نقفور ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الاكرام واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله فى مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد . وقد أراد أيضاً أن يغتنم غنيمة علمية فان أوربا فى ذلك الوقت كانت مهدجهالة لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبربرة على أوربا انطفأ مصباح العلم أما الحال فى البلاد الاسلامية فكانت على العكس من ذلك علما وعملا سواء فى ذلك بغداد وقرطبة فسعى شارلمان فى اصلاح قوانين دولته مقلدا هارون الرشيد وذهب الى أوربا أطباء تعلموا فى البلاد الاسلامية وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلا يقال له اسحاق وأرسله الى الرشيد مصحوبا ببعض الهدايا و بعد أربع سنين عاد اسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهى ساعة وراغنون وفيل و بعض أقمشة نفيسة فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم فى حيرة حتى هموا بكسر الساعة فمنعهم الامبراطور وفى ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس

أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة اذ أن الرشيد كان ينظر الى بنى أمية نظر الخارجين على دولته فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شرا

حضارة بغداد فى عهد الرشيد

وصلت بغداد فى عهد الرشيد الى قمة مجدها ومنتهى فخارها

أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها بنيت فيها

القصور الفخمة التى أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانير وتأنق مهندسوها فى احكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقى بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربى كان فى الشرق قصور البرامكة وما أنشؤه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربى كانت قصور الخلافة التى كانت تبهر الناظرين اتساعا وجمالا وامتدت الأبنية امتدادا عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبى دجلة واستبحر العمران فيها لما جاءها من الثناء وصار سكانها نحو ألفى ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها برا وبحرا تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق اذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الاسلامية بعد أن تقضى جميع حاجها وقد قدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربع مئة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه فى مرتبات الوزراء والمساعدين له والباقى يتصرف فيه حسبما يرى وهو شىء جسيم وكان الرشيد أسمح خلفاء بنى العباس بالمال يعطى منه عطاء من لا يخشى فقرا للقصاد والشعراء والكتاب والمتنجعين وقد جرى على سنته كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التى قد يتردد الانسان فى صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدى فتروج التجارة وتقضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى

واشتد بهم الترف حتى يقال ان جعفر بن يحيى بنى قصرا أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم وتغالى الناس فى حاجاتهم و تأنقوا فى معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وما يرون من روائها وبذخ أهلها وانغماسهم فى الملاذ واعطائهم أنفسهم ماتصبو اليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة

وأما العلم فان بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الاسلامية يرحلون اليها ليتمموا ما بدؤا فيه من العلوم والفنون فهى المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين وكلهم قائمون بالدرس والافادة لتلاميذهم فى المساجد الجامعة التى كانت تعتبر مدارس عليا لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لانسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب الا اذا رحل الى بغداد وأخذ عن علمائها

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشا رغدا مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم

ولم تكن بغداد بالمقصرة فى علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد اليها الاطباء والمهندسون وسائر الصناع من الاقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم فى المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم و زادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجئ الكلام على النهضة العلمية فى بغداد الى زمن المأمون

أخلاق الرشيد

كان الرشيد خليفة دينا محافظا على التكاليف الشرعية أتم محافظة فأما صلاته فكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا الا أن تعرض له علة . وكان له سمير فكه هو ابن أبى مريم المدنى كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته سمعه مرة يقرأ فى صلاته (ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون) فقال ابن أبى مريم لا أدرى والله فما تملك الرشيد أن ضحك فى صلاته ثم التفت اليه وهو كالمغضب فقال يا ابن أبى مريم فى الصلاة أيضاً ثم قال ايك والقرآن والدين ولك ماشئت بعدهما

وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التى كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده

وأما حجه فانه كان لا يتخلف عنه الا اذا كان مشغولا بالغزو فهو فى كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات فى سنى حكمه وهى السنوات ٧٠ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و ٧٧ و ٨٠ و ٨١ و ٨٦ و٨٨ بعد المائة وكان اذا حج حج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم واذا لم يحج أحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة . دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد عظنى فقال يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لاشريك له واعلم أنك غدا بين يدى الله ربك ثم مصروف الى احدى منزلتين لاثالث لهما جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل

الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال سبحان الله وهل يتخالج أحداشك فى أن أمير المؤمنين مصروف الى الجنة ان شاء الله لقيامه بحق الله وعدله فى عباده وفضله — فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت اليه وأقبل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين ان هذا (يعنى الفضل بن الربيع) ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك — فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف — ودخل عليه مرة أخرى فبينما هو عنده اذا استسقى ماء فأتى بقلة من ماء فلما أهوى بها الى فيه ليشربها قال له ابن السماك على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشريها — قال بنصف ملكى — قال اشرب هناك الله — فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال بجميع ملكى قال ابن السماك ان ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكى هارون — ولا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم

وأما جهاد الرشيد فانه كان لا يترك الخروج مع جنده بل كان غالبا فى مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبى حفصة

وسدت بهارون الثغور وأحكمت — به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه — له عسكر عنه تشظى العساكر

وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الوغم قسرا عن يدو هو صاغر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غازحاج فكان يلبسها فقال أبو المعالى الكلابي

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العدو على طمر ... وفى أرض الترفه فوق كور

وما حاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الأمور

لذلك كانت الخلافة لعهده فى أعلى درجات مهابتها واحترامها فى الداخل والخارج كان الرشيد يقتفى آثار المنصور ويعمل بها الافى بذل المال وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر ذلك فى أول مايجب ثوابه . وكان يحب الشعر والشعراء ويميل الى أهل الادب والفقه ويكره المراء فى الدين و يقول هو شئ لانتيجة له وبالحرى لا يكون فيه ثواب وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح و يشتريه بالثمن الغالى . وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل

والخلال التى كانت واضحة فى أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسئ بلا شفقة ولا رحمة فكان يقود الجيوش بنفسه الى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وثائر وكان اذا بلغه عن أحد من رعيته مايريبه اشتد غضبه و زاد انفعاله حتى لا يكاد أحد يقدر أن يكلمه واذا وقع عدوه فى يده لم يتأخر عن أشد عقوبة له وقلما كان يعفو و بهذا فضله ابنه المأمون كما سيجئ فى تاريخه .

واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذى يرخص أهل العراق فى شربه

وكان يسمع الغناء ويثيب عليه أعظم ثواب ولذلك اشتهر فى زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد ممن لم يأت بعدهم مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالأغانى لأبى الفرج الاصبهانى

ولامراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء و نوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له فان ذلك أكثر الجاسوسية فى عهده وصار المتقربون يتقربون اليه بما يتلقفونه من أخبار السوء حتى فقد أعظم وزرائه وأحسنهم أثرا وأعلاهم كعبا واستبقى الفضل بن الربيع لأن أخباره ما كانت تنقطع عنه يوما

وفاة الرشيد

خرج الرشيد من بغداد فى خامس شعبان سنة ١٩٢ قاصدا خراسان عند ما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمدا الامين بمدينة السلام وخرج معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد فى مسيره حتى وافى مدينة طوس فى صفر سنة ١٩٣ وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ وصلى عليه ابنه صالح لأن كان المأمون قد سبقه الى مرو حاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة

وكان للرشيد اثنا عشر ولدا ذكرا وأربع بنات فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر وعلى من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادى - وعبد الله المأمون والقاسم المؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو على ومحمد أبو أحمد وهم لامهات أولاد شتى

وتزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد

بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية

الخراج

أثر جليل من عهد الرشيد

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الاسلامية فى النصف الثانى من القرن الثانى وهو كتاب الخراج للفقيه أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى صاحب الأمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ - ١٨٢)

كان خليفة المسلمين فى هذا التاريخ خامس بنى العباس هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور وكان قاضى قضاته أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته كما كان أبوه المهدى من قبله و يحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم و يخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائما بما يجب عليه من مصالح الامة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب الى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الاسئلة فى رسالة عظيمة الشان وسميت بكتاب الخراج وهى التى جعلناها موضع محاضرتنا هذه الليلة

لم يكن أبو يوسف فى رسالته ذلك الفقيه الجاف الذي هو فى خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتورا منقولا من مسطر سبق به أو ذلك المفتى الضعيف ينظر الى

غرض المستفتى فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذي سبر حال الامة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذى أوحى الله به الى رسوله صلى الله عليه وسلم لاصلاح حال الامة فجال فى ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علما بتاريخ المسائل التى يفتى فيها . فبينا تراه واعظا لا يخاف فى الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعا وأقواها تأثيرا يوجهها الى امامه مع رعاية الأدب واللياقة اذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الامور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ اذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستنا بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التى يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الامام الى مخازيهم ويرفع صوته طالبا اجراء العدالة فيهم ويشير على امامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ويبين له كيف يفعل فى ذلك ليكون ناجيا بين يدى الله سبحانه وتعالى الذى جعله كفيلا لحقوق الرعية

هذا هو الكتاب الجليل الذى يعطى من قرأه صورة هى غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المقدم

وغرضنا التعريف بما انتظمه هذا الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها فى هذا العصر واذا كان عندنا كلمة نقولها لايضاح شىء مما قد يحتاج الى الايضاح نبهنا عليها

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور

الأول بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف

تلك الأموال

الثانى بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال

الثالث بيان بعض الواجبات التى يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به

ونحن نتكلم فى ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب لأن القصد تقريبه الى النفوس من أسهل الطرق

موارد بيت المال

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه الى ثلاثة أقسام

الأول ـ خمس الغنائم

الثانى ـ الخراج

الثالث ـ الصدقات

الغنائم

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع . وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير . والركاز وهو الذهب والفضة الذى خلقه الله فى الأرض يوم خلقت ـ والكنوز العادية التى تصاب فى غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للامام خمسه . أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقا للغانمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقا للواجد فيما عداها ويقسم الامام أربعة الأخماس على القائمين سواء فى ذلك أهل الديوان

والمتطوعون يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله حيث قال للفارس سهمان وللراجل سهم وقال للرشيد فخذ بأى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فان ذلك موسع عليك ان شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين

مصرف الخمس

بين الله فى كتابه مصرف الخمس فى الآية من سورة الأنفال حيث يقول « واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير » قال أبو يوسف فكان ذلك الخمس يقسم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لله وللرسول سهم ولذى القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى وروي عن ابن عباس أنه قال عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضى عن غارمنا فأبينا الا أن يسلمه لنا وأبى علينا . ومع أن ذلك كان رأى على بن أبى طالب رضى الله عنه فانه قسم الخمس كما قسمه سلفه

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوى القربى فى الكراع والسلاح . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوى القربى الى بنى هاشم . قال وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . وأقول رأى الشافعي محمد بن ادريس المطلبي رحمه الله أن سهم الرسول

يصرف فى مصالح المسلمين وسهم ذوى القربى يصرف لمن ينتسب الى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف دون بنى أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى فى العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترك فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزنى وأبو ثور من أصحاب الشافعى وللذكر مثل حظ الأنثيين كما قال غيرهما - وبقول الشافعى قال أحمد الا أنه قال ان ردوه صرف فى السلاح والكراع لفعل أبى بكر وعمر وعثمان

الخراج

المورد الثانى من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء

(١) وظيفة الأرض الخراجية

(٢) جزية أهل الذمة

(٣) ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب

وظيفة الأرض الخراجية

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب اليه بعض ذوى الرأى من الصحابة أن يقسم الارض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه فى ذلك فأبى عليهم مستندا الى كتاب الله تعالى الذى جعل هذا الفئ حقاً للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم ذكر ذلك فى سورة الحشر حيث قال — « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » « والذين

تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » « والذين جاءو من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمــان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم »

فجعل هذا الفيء حقا للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسـمة الأرض بين الغانمين لأنه لو قسمها بينهـم لم يبق لمن يأتى بعدهم شيء بل ترك الأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك فى أعطيات الجنود وغير ذلك ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله أن هذه الأرضـين المفتوحة عنوة يخير فيها الامام فان شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وان لم يرقسمها ورأى الصلاح فى اقرارها فى يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد فله ذلك وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها و يتبايعونها و يضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك مالا يطيقون

واذا يكون حد أرض الخراج — كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الامام وأبقاها بأيدى أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة

ويخرج من ذلك أنواع من الأراضى لا يوضع عليها الخراج وانمـا تـكون أرضا عشرية وهى

(١) كل أرض للعرب غير بنى تغلب

(٢) كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعا

(٣) كل أرض من أرض الاعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الامام بين الغانمين . وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج

مافعله عمر فى أرض الخراج

لما اتضح لعمر رأيه فى الارض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت ٣٦،٠٠٠،٠٠٠ جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم والأطعمة حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك وهذه الوظيفة تختلف من درهمين الى عشرة دراهم على الجريب فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم فى رواية وثمانية فى أخرى و بين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وقفيز وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم وقال ان جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم

أقول واذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ماذكرنا يكون متوسط جباية الجريب ٧٥ و ٢ درهم وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التى كانت تؤخذ على أجربة الحنطة لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح الا اذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد . وقال ابن خرداذبه ان عمر جبا العراق ١٢٨،٠٠٠،٠٠٠ درهم فيكون متوسط جباية الجريب ٣،٥٥ درهم وهو أقرب من المفهوم ولابد أنه لم يعتبر فى ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعا فى ستين بذراع الملك وهى ٥٧،٧٧ م وبالتكسير تكون مساحة الجريب ١٢٠٠ م فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصرى . ولابد أن ننبه هنا على ما رأيناه فى كتاب صاحب السعادة

المفضال يعقوب أرتين باشا الموسوم بالأحكام المرعية فى الأراضى المصرية فانه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعا فى ستين بذراع الملك وظن أن ذراع الملك هى الذراع السوداء فوقع فى الخطأ الحسابى الذى أنتج له أن كل أربعة أجربة و $\frac{٤}{٥}$ جريب تعادل فدانا مصريا مع أن هناك اختلافا بين الذراعين كما ذكره الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية حيث قال ان ذراع الملك تزيد على الذراع السوداء بخمس أصابع وثلثى أصبع فتكون ذراعا وثمنا وعشرا أى ذراعا و $\frac{٩}{٤٠}$ وحقق العلامة المرحوم على مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هى $\frac{٥}{٤}$ فتكون ذراع الملك ذراعا وربعا بالسوداء وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعمائة ذراع بذراع التجار و ٥٠٠ بالذراع السوداء وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على ٤٠٠ و ٥٠٠ يخرج هذان الرقمان ٥٧،٧٧ س وهو طول ذراع الملك و ٤٦،٢ س وهو طول الذراع السوداء

واذا كان كل ٥ ، ٣ جريب فدانا تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحا ١٤ درهما

هذا هو الخراج الموظف الذى رآه عمر

لم ير أبو يوسف رحمه الله ما قرره عمر رضى الله عنه فى أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمرا لازما لمن يأتى بعده بل يجوز للخلفاء اذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين فى المقاسمة أن يعدلوا اليها . وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج فى هذا الأمر فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج . أما وظيفة الطعام فان كان رخصا فاحشا لم يكتف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يطب نفسا بالحط عنهم ولم

يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور — وان كان غلاء فاحشا لا يطيب السلطان نفسا بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله لا يقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم . ثم قال . وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوى على الضعيف ثم قال — ولم أجد شيئا أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل . وقد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعا على خمسين للسيح منه وأما الدوالى فعلى خمس ونصف وأما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص فى شىء من ذلك ولا يحزر عليهم شىء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات فى أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم من ذلك أى ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم وان كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم . ومن رأى أبى يوسف اعفاء مادون خمسة أوسق من الخراج وهى ٣٠٠ صاع أو ١٦٠٠ رطل وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد الا بقدر ما يمكن الدياس فاذا أمكن الدياس رفع الى البيادر ولا يترك بعد امكانه للدياس يوما واحدا لئلا تذهب به الاكرة والمارة والطير

والدواب فيضر ذلك بالخراج واذا رفع الى البيادر وصير أكداسا أخذ فى دياسه ولا يحبس الطعام اذا صار فى البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فان فى حبسه فى البيادر ضررا على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ما فى البيادر ولا يحزر عليهم حزرا ثم يؤخذون بنقائص الحزر فان هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد واذا ديس الطعام وذرى قاسمهم

ثم قال ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم فى شىء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ولا يؤخذون بثمن الاتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة فى المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجا لدراهم يؤدونها فى الخراج فانه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدراهم ليؤديها فى الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل فى دراهم خراج ولا يقام على رجله فانه بلغنى انهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع فى الاسلام

من أجل ذلك نرى أبا يوسف رحمه الله دقق كثيرا فى أمر من يولى جباية الخراج فأشار على امامه أن يكون والى ذلك فقيها عالما مشاورا لأهل الرأى عفيفا لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ما حفظ من حق

وأدى من أمانة احتسب به الجنة وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته ان شهد ولا يخاف منه جور في حكم ان حكم . ثم قال : انى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج اذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ولعله لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال : وتقدم الى من وليت أن لا يكون عسوفا لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم لكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا و يحملوا مالا يجب عليهم واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وانصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس . قال : وانى لأرجو أن أمرت بذلك وعلم الله من قلبك ايثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أوخالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نويت ان شاء الله . ولتصير مع الوالى الذى وليته قوما من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك فان من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمر باجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ولا تجرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سدا لضرر أهل الخراج ونقص الفيء

ورأى مع هذا كله أن يبعث الامام قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى الخراج وكيف جبوه على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر فاذا ثبت ذلك عندك

وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد اليهم فيه فان كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فانما يحمل على أنه قد أمر بغيره وان أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وان لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترؤا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم واذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجان شىء من الفيء أو خبث طعمته أو سوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئا من أمور رعيتك أو تشركه فى شىء من أمرك

تقبيل الارض

كان النظام المتبع فى جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الاشخاص قبيلا أى كفيلا بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وكان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الارض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين ما دفعه وما حصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام فقال للرشيد ورأيت ألا تقبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد فان المتقبل اذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ولعله يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك الا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد واقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى

نهى الله عنه انما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم . وانما أكره القبالة لأنى لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا و يدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شيء وان يقع مع الصلاح شيء ان الله قد نهى عن الفساد فى الارض فقال — ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها — وقال — واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد — وانما هلك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشترى منهم واظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لا يحل ولا يسع — واختار أبو يوسف التقبل اذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا هو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم ان أراده والاعذار الى المتقبل والوالى برفع الظلم عن الرعية والوعيد له ان حملهم مالا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فان فعل ففوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجرا له وناهيا لغيره ان شاء الله

القطائع

القطائع جمع قطيعة وهى ما يمنحه الامام من الأرض لبعض الممتازين بنفعالهم من الرعية

قال أبو يوسف رحمه الله ان عمر رضى الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد أو لرجل قتل فى الحرب أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه

الأرض ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ جريب فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع قال أبو يوسف وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا فى يد وارث فللامام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الاسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به فكذلك هذه الأرض — ثم قال — فأما من أخذ من واحد وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحدا

والامام مخير فى هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية ان كانت تسقى من أنهار الخراج — قال أبو يوسف وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضا من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التى ذكرنا أن الامام يقطع منها فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدي من هو فى يده وارثا أو مشتريا — فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضا وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحدا وأعطى آخر فلا يحل للامام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيأ الا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذى وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندى بمنزلة المال فللامام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء فى الاسلام ومن يقوى على العدو ويعمل فى ذلك بالذى يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الامام من أحب من الاصناف التى سميت ولا أرى أن يترك أرضا لاملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج — فهذا حد الاقطاع عندى على ما أخبرتك — ومن رأى أبي يوسف أن أرض الاقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤنة فى حفر الأنهار وبناء البيوت

وعمل الارض

ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتى ذكره

موات الارض

قال أبو يوسف لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحاً وفى بعض قراها أرض كثيرة لايرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهى موات فمن أحياها فهى له وللامام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤاجره و يعمل بما فيه الصلاح وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه الله فى احياء الموات فان الامام يقول لا يملك المحيي ما أحيا الا باذن الامام قال أبو يوسف وانما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس

واذا كانت الارض الموات فى أرض العشر أدى عنها العشر وان كانت فى أرض الخراج أدى عنها الخراج وان احتفرلها بئرا أواستنبط لها قناة كانت أرض عشر أما ان ساق اليها ماء الخراج فهى أرض خراج

قال أبو يوسف وأيما قوم من أرض الحرب بادوا و بقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو الخراج فهى له وليس للامام أن يخرجها من يده

وجعل من الأرض الموات ماينكشف من الجزر فى دجلة والفرات اذا كان لرجل جزيرة أوأرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها فهى له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن وكذلك ماعولج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع مافيها من القصب وكذلك ماعولج من الآجام ـ كل ذلك مشروط بألا يكون للأرض مالك أوذو يد أو مرتفق فان المحافظة على حقوق

ارتفاق الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف حتى منع من انشاء الغروب فى دجلة اذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التى تمر فى دجلة ومن فعل من ذلك شيأ فعطبت به سفينة فهو ضامن قال أبو يوسف ولا يترك الامام شيأ من ذلك الا أمر به فهدم ونحى فان فى هـذا ضرراً عظيما فالفرات ودجلة انمـا هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً فمن أحدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلا ثقة أميناً حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيأ فى دجلة والفرات فى موضع يضر بالسفن ولا يتخوف عليها منه الا نحاه وتوعد أهله على اعادة شئ منه فان فى ذلك أجراً عظيما • وتكلم طويلا فى المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها

المورد الثانى من موارد الخراج جزية أهل الذمة

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس وهذه الجزية يقابلها من المسـلمين الحماية ودفع العدو عنهم . وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين فى حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية — روى الطبرى فى حوادث سنة ٢٢ من الهجرة أن عبدالرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لمـا توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهر براز فقال له انى بازاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب وليس ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يسـتعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القَبَج فى شئ ولا من الأرمن وانـكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصـغوى معكم وبارك الله لنا ولـكم وجزيتنا اليكم النصر لـكم

والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم - فقال عبد الرحمن فوقى رجل فسر اليه فجوزه فسار الى سراقة بن عمرو فلقيه بمثل ذلك فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة. وكتب سراقة الى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه وحسنه وكتب لهم سراقة بذلك كتابا

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين اذ ذاك فى أمر الجزية قال أبو يوسف ان الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ما خلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة والذى يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له — وليس فى مواشى أهل الذمة من الابل والبقر والغنم زكاة

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات ٤٨ درهما على الموسرين و ٢٤ على المتوسطين و ١٢ على العمال

ثم قال أبو يوسف وينبغى يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شئ من أموالهم الا بحق يجب عليهم

أما نصارى بنى تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة هكذا فعل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه

وقد تكلم أبو يوسف على ما منح لأهل الذمة من الامتيازات فى دينهم

وكنائسهم وبيعهم فقال انه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبان فى أعيادهم وعلى أن يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام كلها والحيرة الأقلها على هذا فلهذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم . ثم اقتص تاريخ ما أعطاه القواد لأهل الذمة فى الأقاليم المختلفة من هذه الشروط وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

المورد الثالث من موارد الخراج العشور

لم تكن العشور من الموارد التى ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعرى كتب اليه ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب اليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المائتين شىء فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ومازاد فبحسابه . وروى أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ

فى ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب . وبعث زياد ابن حدير الأسدى على عشور العراق والشام . فصار ذلك سنة فى المرور بأموال التجارة خاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سبيله سبيل الخراج . أما ما يرد من المسلمين فسبيله سبيل الصدقات ولذلك اذا قال المسلم قد أديت زكاة هذا المال الذى فى يدى صدق فى يمينه

قال أبو يوسف رأيت أن تولى العشور قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وأن يمتثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ما قد أمروا به فان كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وان كانوا قد انتهوا الى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسنت اليهم فانك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدى بما تأمر به فى الرعية يزيد المحسن فى احسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها الى بعض بالقيمة

مصاريف بيت مال الخراج

الخراج الذى يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب مايرى الامام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها فى أسئلة الخليفة وهى

أولا — أرزاق القضاة والولاة والعمال قال أبو يوسف فيجرى على والى كل مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فاجر عليه

من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا الا والى الصدقة فانه يجرى عليه منها فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك اليك من رأيت أن تزيده منهم فى رزقه زدت ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت أرجو أن يكون ذلك موسعا عليك وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فانى أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجرى على القاضى اذا صار اليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم من الذى يصير اليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم وما لهم فأجاب سلبا وقال انما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع اذا صارت اليه مواريثه رزقا ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين فأما من يوكل بالقيام بتلك المواريث فى حفظها والقيام بها فيجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ماهم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكا وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفما عمل ولا يبالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث الا من وفقه الله تعالى منهم

ثانياً — أعطيات الجنود وهى مرتبات العسكر

لم يكن فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين وانما كانوا يأخذون مالهم فى أربعة أخماس مايغنمون وفيما يرد من خراج الأراضى التى أبقيت فى أيدى أهلها كأرض خيبر ولما ولى

أبو بكر رضى الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم فى العطاء قائلا هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة فلما ولى عمر رضى الله عنه رأى فى ذلك غير رأى أبى بكر وقسم العطاء مفضلا الأسبق فالأسبق وهذا قوله بنصه : والله الذى لا اله الا هو ما أحد الا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وتلاده فى الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام والرجل وحاجته فى الاسلام . بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتى :

١٢٠٠٠ درهم لأزواج النبى ﷺ ولعمه العباس

٥٠٠٠ لمن شهد بدرا من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين

٤٠٠٠ لمن كان اسلامه كاسلام أهل بدر ولم يشهدها وألحق بهم أسامة ابن زيد

٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبى سلمة

٢٠٠٠ لابناء المهاجرين والأنصار

٨٠٠ لاهل مكة

٤٠٠ و ٣٠٠ لسائر الناس

٦٠٠ و ٤٠٠ و ٣٠٠ و ٢٠٠ لنساء المهاجرين والانصار

وكان يفرض لامراء الجيوش والقرى فى العطاء ما بين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ٧٠٠٠ على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور وكان للمنفوس اذا طرحته أمه ١٠ دراهم فاذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ فاذا بلغ زاده

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذى أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية الى أن يشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ماتقوم به حاجة الأمة من الجيش وكان بعض من ليس مرتزقا فى الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعا وكانوا كثيرين يلازمون الثغور ويخرجون مع الجيوش

ثالثاً — كرى الأنهار واصلاح مجاريها

قال أبو يوسف رحمه الله واذا احتاج أهل السواد الى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج

وأما الأنهار التى يجرونها الى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شىء

فأما البثوق والمسنيات والبريدات التى تكون فى دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام فان النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شىء لان مصلحة هذا على الامام خاصة لانه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه وانما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك الا رجل يخاف الله

يعمل فى ذلك بما يجب عليه لله قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل فى ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئا يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ماللناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم . ثم وجه من يتعرف ما يعمل به واليك فى هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العمل عليها مما قد يحتاج الى العمل وما تفجر وماالسبب فى انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لامره أو ذم وانكار وتأديب

رابعا — حفر الترع بعد التثبت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفةفاذا تبين الامام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فانهم ان يعمروا خير من أن يخربوا وأن يغروا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا

خامسا — الاجراء على المسجونين

قال جوابا لسؤال للرشيد عنهم لا بد لمن كان فى مثل حالهم اذا لم يكن له شئ يأكل منه لا مال ولا وجه شئ يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك وأحب الى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فانه لا يحل ولا يسع الا ذلك قال والاسير من أسرى المشركين لابد أن يطعم ويحسن اليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قدأخطأ وأذنب يترك يموت جوعا وانما حمله على ما صار اليه القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء تجرى على أهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك على بن أبى طالب كرم الله

وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده

قال أبو يوسف فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك اليهم فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن من تجرى عليهم الصدقة وتكون الاسماء عنده ويدفع ذلك اليهم شهرا بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك اليه فى يده فمن كان منهم أطلق وخلى سبيله رد ما يجرى عليه ويكون الاجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد — وليس كل من فى السجن يحتاج الى أن يجرى عليه وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء وفى الصيف قميص وازار ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء وفى الصيف قميص وازار ومقنعة وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس فان هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطؤا وقضى الله عليهم ما هم فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الاسلام وانما صاروا الى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا وان ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالأجراء عليهم مثل ما فسرت لك ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فانه بلغنى وأخبرنى به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث فى السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكترون من

يحمله الى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة فما أعظم هذا فى الاسلام وأهله

المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات وهى ما يؤخذ من المسلمين .

أولا – من أنعامهم وهى الابل والبقر والغنم على حساب معين فى الفقه الاسلامى

ثانياً – من نقودهم التى هى الذهب والفضة باعتبار ٥ و ٢ من كل مئة

ثالثاً – من أموال تجاراتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٥ و ٢ من كل مئة

رابعاً – ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهى أعشار الارض يؤخذ مما سقى بدون مؤنة العشر ومما سقى بمؤنة نصف العشر

قال أبو يوسف رحمه الله ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات فى البلدان ومره فليوجه فيها أقواما يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون اليه صدقات البلدان فاذا جمعت اليه أمرته فيها بما أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه ولا تولها عمال الخراج فان مال الصدقة لا ينبغي أن يدخل فى مال الخراج وقد بلغنى أن عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم فى الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون مالا يحل ولا يسع وانما ينبغى أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فاذا وليتها رجلا ووجه من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة

مصارف الزكاة

الزكاة تصرف بالنص الى ثمانية أصناف من الناس قال الله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله »

قال أبو يوسف فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية فى ذلك أكثر الأئمة) والعاملون عليها يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير. وقسمت بقية الصدقات بينهم فللفقراء والمساكين سهم والغارمون وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفى أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفى الرقاب سهم وسهم فى اصلاح طرق المسلمين و يقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة فى أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى وأما غيره فيصنع به الامام ما أحب من هذه الوجوه التى سمى الله تعالى فى كتابه وان صيرها فى صنف واحد ممن سمى الله تعالى أجزأه

---

٦ — الامين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمى أبا وأما ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء الا لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ولابنه الحسن

ولد سنة ١٧٠ من الهجرة وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ وكان قائما مقام أبيه

ببغداد حينما سافر الى خراسان ولما مات الرشيد بطوس بويع له فى عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر الى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر فى الخلافة الى أن قتل فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات الا أربعة أشهر تقريبا

الحال الداخلية لذلك العهد

كانت هذه المدة التى وليها الأمين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعا وسبب ذلك ما فعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها فى الأمة

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون الى المأمون وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون . ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لما به أرسل من يفيده الأخبار كل يوم وأرسل كتبا تسلم الى من أرسلت اليه بعد وفاة الرشيد . فلما توفى كان من تلك الكتب كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد وللقاسم المؤتمن بعده . ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذى صلى عليه حين مات وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين ثم المأمون

ثم المؤتمن على الشريطة التى اشترطها الرشيد وأمره بالمسير اليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح وقال له فى الكتاب وايك أن تنفذ رأيا أو تبرم أمرا الابرأى شيخك و بقية آبائك الفضل بن الربيع . وفيه . وان أمرت لاهل العسكر بعطاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لاعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بحضر من أصحاب الدواوين فان الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا فى اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون

انتهى خبر ذلك الى المأمون وهو بمرو فجمع من معه من قواد أبيه واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم فى ألفى فارس تجريدة فيردهم فدخل عليه الفضل بن سهل وهو عنده من أعظم الناس قدرا وأخصهم به فقال له ان فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية الى محمد ولكن الرأى أن تكتب اليهم كتابا وتوجه اليهم رسولا فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدين والدنيا ففعل ذلك المأمون و وصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل فلم يفد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره

لما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضرا فأزال عنه الانزعاج

وأمله فى الخلافة فجعل أمره اليه وأمره أن يقوم به بعد أن رفضه كبار القوادالذين معه . فكان من أول تدبيره أن يبعث الى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السنة وأن يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريبا من نفوس الجمهور ففعل

ولم يبدأ المأمون أخاه بشئ يريبه بل تواترت كتبه اليه بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح

أما الأمر فى بغداد فقدكان يدل على شر مستطير فان الفضل بن الربيع بعد مقدمه العراق ناكثا للعهود التى كان الرشيد أخذها عليه للمأمون رأى أن الخلافة ان أفضت الى المأمون يوما وهو حى لم يبق عليه فحث محمدا على خلعه وأن يولى العهد من بعده ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول ما بدأ به أن كتب الى جميع العمال فى الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم . فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم عما كان الرشيد ولاه من الاعمال وأقدمه بغداد علم أنه يدبر فى خلعه فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطراز

كرر الأمين تجربته فكتب الى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الرى وأمره أن يبعث اليه بغرائب غروس الرى مريدا بذلك امتحانه فبعث اليه بما طلب فبلغ ذلك المأمون فعزل العباس عن ولايته

ثم بعث الأمين الى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العباس بن موسى بن عيسى والغرض من هذا الوفد أن يطلبوا من المأمون رضاه بتقديم موسى بن الأمين

على نفسه فى ولاية العهد فلما اطلع المأمون على مرادهم رد ذلك وأباه وعرض الفضل بن سهل على العباس بن موسى أن يكون عونا لهم ومنوه الأمانى ان هو أجاب الى ذلك فرضى وكان بعد ذلك يكتب اليهم بالأخبار ويشير عليهم بالرأى عاد الوفد الى الأمين وأخبروه بامتناع المأمون

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الربيع بل ما زال يلح على الأمين حتى رضى أن يخلع المأمون ويبايع لابنه موسى بولاية العهد . ونهى الفضل عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على شىء من المنابر ووجه الى مكة كتابا مع رسوله من حجبة البيت فى أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة فأحضرهما الى بغداد فمزقا

وكان الأمين قبل أن يكاشف أخاه بذات نفسه أرسل اليه يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها وأن يوجه العمال اليها من قبل محمد وأن يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره فكتب اليه جواب ذلك

بلغنى كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافى عن مواضع سماها مما أثبته الرشيد فى العقد وجعل أمره الىّ وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره غير أن الذى جعل الى الطرف الذى أنا به لاظنين فى النظر لعامته ولا جاهل بما أسند الى من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التى أنا عليها من اشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها الا بالأموال وطرف من الافضال لكان فى نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحب من أطرافه مايوجب عليه أن يقسم له كثيرا

من عنايته وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد وانى لاعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته الى ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان ان شاء الله

وكان المأمون قد وجه حارسة الى الحد فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الامناء ولا يدعه يستعلم خبرا ولا يؤثر أثرا ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحدا ولا يبلغ أحدا قولا ولا كتابا -- فحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو أن تودع صدورهم رهبة ويحملوا على منول خلاف أو مفارقة — ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم الا من لا يدخل الظنة فى أمره ممن أتى بجواز فى مخرجه الى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون فى نفسه ودينه ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول فى البلدان فى هيئة الطارئة والسابلة وفتشت الكتب. هكذا دبر الفضل بن سهل أمر صاحبه فلم يدع للفضل بن الربيع مجالا لرسله ورواده أن يبثوا شيئاً فى عامة أهل خراسان ولما أتت رسل الأمين بجواب كتب الأمين وجدوا جميع ما كانوا يؤملونه ممنوعا عنهم موصدا بابه دونهم. وكان كتاب الأمين للمأمون

أما بعد فان أمير المؤمنين الرشيد وان كان أفردك بالطرف وضم ما ضم اليك من كور الجبل تأييدا لأمرك وتحصينا لطرفك فان ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافيا لحدثه ثم تتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضل من رده وقد ضم لك الى الطرف كورا من أمهات

كور الاموال لاحاجة لك فيها فالحق فيها أن تكون مردودة فى أهلها ومواضع حقها فكتبت اليك أسألك رد تلك الكور الى ما كانت عليه من حالها ليكون فضول ردها مصروفا الى مواضعها وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدى الينا علم ما نعنى به من خبر طرفك فكتبت تلط دون ذلك بما ان تم أمرك عليه صيرنا الحق الى مطالبتك فاثن عن همك أثن عن مطالبتك ان شاء الله .

فلما قرأ المأمون كتابه كتب اليه

أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه — ولم يسأل مالا يوجبه حق فيلزمنى الحجة بترك اجابة وانما يتجاوز المناظران منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها فمتى تجاوز متجاوزها وهو موجودة الوسع ولم يكن تجاوزها الا عن نقضها واحتمال ما فى تركها فلاتبعثنى ياابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك وأنا على ايثار ما تحب من صلتك وارض بما حكم به الحق فى أمرك أكن بالمكان الدى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام

فلما وصل الكتاب الى الأمين اشتد غيظه وعند ذلك أمر بعدم الدعاء له على المنابر وكتب اليه

أما بعد فقد بلغنى كتابك غامطا لنعمة الله عليك فيما مكن لك من ظلها متعرضا لحراق نارلا قبل لك بها ولحطك عن الطاعة كان أودع وان كان قد تقدم منى متقدم فليس بخارج من مواضع نفعك اذ كان راجعا على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال الهدنة فاعلمن رأيك أعمل عليه ان شاء الله .

لم يكن لهذه المكاتبات بين الأخوين نتيجة لانه كان لكل منهما سائق يسوقه فللأمين الفضل بن الربيع الذى لم يكن يحب المأمون ولا ولايته وللمأمون الفضل بن سهل الذى كان يأمل الخلافة لصاحبه وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظمتها

بلغ المأمون ماأقدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهد وترك الدعاء له فكان أول مافعله الفضل بن سهل من التدبير أن جمع الأجناد التى كان أعدها بجنبات الرى مع أجناد قد كان مكنها فيها وأجناد للقيام بأمرهم وأقامهم بالحد لا يتجاوزونه ولا يطلقون يدا بسوء فى عامة ولا مجتاز ثم اختار لقيادة الجند طاهر بن الحسين الخزاعى مولاهم فسار طاهر مغذا لا يلوى على شئ حتى ورد الرى فنزلها ووكل بأطرافها ووضع مسالحه وبث عيونه وطلائعه

أما الفضل بن الربيع فانه اختار لجند العراق على بن عيسى بن ماهان وولاه الأمين كور الجبل كلها نهاوند وهمذان وقم وأصفهان وأعطى جنده من الأرزاق شيئاً كثيرا وأمدهم بالسلاح والعدة فشخص من بغداد فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٩٥ وكان معه زهاء أربعين الفا وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما شاءت زبيدة أم الأمين وقد خدم الأمين أخاه بهذا التعيين خدمة عظيمة فان أهل خراسان لم ينسوا ما عاملهم به على بن عيسى من الفظائع مدة ولايته فى عهد الرشيد فكان تعيينه لحربهم مما أثار فى قلوبهم الحمية لرد هذا العدو بعد أن أبدلهم الله خيرا منه عدلا ورفقا وحسن سياسة وهو عبد الله المأمون.

ومما كان ينذر بالشر جند الأمين عدم احتفال قائده بلقاء عدوه فانه لما بلغه أن طاهر بن الحسين مقيم بالرى كان يضحك ثم يقول وما طاهر فوالله ما هو الا شوكة

من أغصانى أو شرارة من نارى وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب ثم التفت الى أصحابه فقال والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف الأن يبلغه عبورنا عقبة همذان فان السخال لا تقوى على النطاح والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد فان يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظبات السيوف وأسنة الرماح . ولما صار فى أول بلاد الرى أتاه صاحب مقدمته وقال لو كنت أبقى الله الأمير أذكيت العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعا تعسكر فيه وتتخذ خندقا لاصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ فى الرأى وآنس للجند — فقال لا ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ ان حال طاهر تؤول الى أحد أمرين اما أن يتحصن بالرى فيبهته أهلها فيكفونا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعا لو قربت خيولنا وعسكرنا منه — وأتاه يحيى بن على فقال اجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات ولا تسرح الخيل الا ومعها كنف من القوم فان العساكر لا تساس بالتوانى والحروب لا تدبر بالاغترار والثقة أن تحترز ولا تقل المحارب لى طاهر فالشرارة الخفية ربما صارت ضراما والثلمة من السيل ربما اغتر بها فتهون فصارت بحرا عظيما وقد قربت عساكرنا من طاهر فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر الى يومه هذا . فقال له اسكت فان طاهرا ليس فى هذا الموضع الذى ترى وانما يتحفظ الرجال اذا لقيت أقرانها وتستعد اذا كان المناوئ لها أكفاءها ونظراءها

وبينما كان هذا القائد يسير مدلا بنفسه وبمن معه مستخفا بعدوه كان طاهر يدبر أمره مع قواده ويسير سير من يريد موافعة عدو أكثر منه عددا وعدة

وقد استقر رأيه على أن يجعل مدينة الرى وراء ظهره ويقاتل بعيدا عنها فعسكر على خمسة فراسخ منها وأقبل اليه على بن الحسين وقد عبأ جنده وهم فى أكمل عدة وأحسن زى فكتب طاهر كتائبه وكردس كراديسه وسوى صفوفه وجعل يمر بقائد قائد وجماعة جماعة يعظهم ويثبتهم ثم تلاحم الفريقان واقتتلوا قتالا شديدا فعلت ميمنة على على ميسرة طاهر ففضتها فضا منكرا وميسرته على ميمنته فأزالتها عن موضعها فقال طاهر اجعلوا بأسكم وجدكم على كراديس القلب فانكم لو قد فضضتم منهم راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها فصبر أصحابه صبرا صادقا ثم حملوا على أولى رايات فهزموهم وأكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان فى وجوههم فهزموهم وانتهت الهزيمة الى على ورماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السيوف حتى حال الليل بينهم وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة ونادى طاهر فى أصحاب على من وضع سلاحه فهو آمن فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعاد طاهر الى الرى وكتب الى الفضل ابن سهل — أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشناك فداك كتبت اليك ورأس على بن عيسى فى حجرى وخاتمه فى يدى والحمد لله رب العالمين — فلما وصل الكتاب الى الفضل نهض فسلم على المأمون بأمير المؤمنين — وأمد طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب حبل الدين

وصل هذا الخبر بغداد على غير ما ينتظر القوم فانتخب الأمين جيشا ثانياً جعله تحت قيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى وعدة هذا الجيش عشرون الف رجل من الأبناء وحمل معه الأموال وقواه بالسلاح والخيل وأجازه بجوائز

وندب معه فرسان الابناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم وأوصى قائده بالتحفظ والاحتراس وترك ما عمل به على بن عيسى من الاغترار والتضجع فسار عبد الرحمن حتى نزل همذان فضبط طرقها وحصن سورها وأبوابها وسد ثلمها وحشر اليها الأسواق والصناع وجمع فيها الآلات والمير واستعد للقاء طاهر ومحاربته . ولما بلغ طاهرا خبره توجه اليه حتى أشرف على همذان فخرج اليه عبد الرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتتل الفريقان قتالا شديدا الى أن انهزم عبد الرحمن ودخل همذان فلبث فيها حتى قوى أصحابه واندملت جراحهم ثم خرج ثانية الى اللقاء فلقيه طاهر وفعل به ما فعل فى المرة الأولى فعاد الى همذان فحصره فيها طاهر حتى جهد من قلة المادة فطلب الأمان له ولمن معه فأمنه طاهر

ولما تم لطاهر هذا النصر طرد عمال محمد من قزوين

كان ذلك سبباً لارتباك الفضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة فدعا أسد بن يزيد بن مزيد وهو من قواد الدولة المعدودين وقال له أنت فارس العرب وابن فارسها فزع اليك الأمين فى لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران — أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك والثانى يمن نقيبتك وشدة بأسك وقد أمرنى بازاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فأنجز حوائجك وعجل المبادرة الى عدوك فانى أرجو أن يوليك الله شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة — فلم يمتنع أسد وانما طلب لجنده مطالب هى أن تؤمر لأصحابه برزق سنة ويخص من لا خاصة له منهم من أهل الغناء والبلاء وأبدل من فيهم من الزمنى والضعفاء واحمل ألف رجل ممن معى على الخيل ولا أسأل عن محاسبة ما افتتحت من

المدن والكور — فقال له الفضل قد اشتططت ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين ثم ركبا اليه فدخل عليه الفضل أولا ثم دخل أسد فما كان بينهما الا كلمتان حتى غضب الأمين وأمر بحبس أسد — ثم قال هل فى أهل بيتى هذا من يقوم مقامه فانى أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم وما تقدم من طاعتهم ونصيحتهم فقالوا نعم فيهم أحمد بن مزيد وهو أحسنهم طريقة وأصلحهم نية فى الطاعة وله مع هذا بأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب فاستدعاه محمد وقال له انه قد كثر على تخليط ابن أخيك وتنكره وطال خلافه على حتى أوحشنى ذلك منه وولد فى قلبى التهمة له وصيرنى بسوء المذهب وحنث الطاعة الى أن تناولته من الأدب والحبس بما لم أحب أن أكون أتناوله به وقد وصفت لى بخير ونسبت الى جميل فأحببت أن أرفع قدرك وأعلى منزلتك وأقدمك على أهل بيتك وأن أوليك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة وأعرضك للاجر والثواب فى قتالهم ولقائهم فانظر كيف تكون وصحح نيتك وأعن أمير المؤمنين على اصطناعك وسره فى عدوه ينعم سرورك وتشريفك . ثم أمر الفضل أن يدفع اليه دفاتر أسد وأن يضم اليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب — فخرج أحمد فانتخب الرجال واعترض الدفاتر فبلغت عدة من معه عشرين ألف رجل — و وجه الأمين عبد الله بن حميد بن قحطبة فى عشرين الفا أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان و يدفعا طاهرا عنها وتقدم اليهما فى اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الطاعة — فتوجها حتى نزلا قريبا من حلوان بخانقين

أما طاهر فانه أقام بموقعه وخندق عليه وعلى أصحابه ودس العيون والجواسيس الى عسكرى عدوه فكانوا يأتونهم بالاراجيف ولم يزل يحتال فى وقوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضا فاخلوا خانقين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهرا فتقدم طاهر حتى نزل حلوان — ثم لم يلبث الا قليلا حتى ورد عليه هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون ومعه كتاب من المأمون والفضل بن سهل يأمره فيه بتسليم ماحوى من الكور والمدن اليه ويتوجه الى الاهواز فسلم ذلك اليه وأقام هرثمة بحلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده فى طرقها وجبالها وتوجه طاهر الى الاهواز ليكون الهجوم على بغداد من جهتين

كان من سوء حظ الأمين أن عبد الله بن صالح بن على الذى كان الرشيد قد حبسه خلصه الأمين من سجنه فعد ذلك فضلا منه وأراد مساعدته فطلب اليه أن يوليه الشام والجزيرة ليحضر اليه جندا من العرب قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد فولاه ذلك فلما وصل الى الرقة أنفذ كتبه الى رؤساء الأجناد بالشام ووجوه الجزيرة فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه الا وعده وبسط له فى آماله وأمنيته فقدموا عليه رئيسا بعد رئيس وجماعة بعد جماعة وأتاه أهل الشام الزواقيل والاعراب من كل فج واجتمعوا عنده

حصلت مشكلة تافهة بين جندى خراسانى وجندى من الزواقيل فتعصب لكل جماعته تعصبا أدى الى التلاحم واستعد الابناء وأتوا الزواقيل وهم غارون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فتنادى الزواقيل وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين وكان عبد الملك بن صالح اذ ذاك مريضا فوجه اليهم رسولا يأمرهم

بترك الحرب فرموا رسوله بالحجارة . ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب قال واذلاه تستضام العرب فى دارها ومحلها وبلادها — فكان ذلك بمثابة محضأ حرك الى الشر من لم يركب من الأبناء وقام بأمرهم الحسين بن على بن عيسى بن ماهان — فلما رأى ذلك أهل الشام أجمعوا أمرهم على الرحيل الى بلادهم فرحلوا قائلين الموت الفلسطينى خير من العيش الجزرى وأقام الحسين بمن معه من الابناء

انتهت هذه الفكرة بالفشل ولم يقف شرها عند هذا الحد فان الحسين بن على نادى فى عسكره بالرحيل قاصدا بغداد فلما وصلها حض الابناء الذين معه على خلع الأمين فاجابوه فتوجه بهم حيث يقيم الأمين ونادوا بخلعه فى ١١ رجب سنة ١٩٦ وأخذوا البيعة للمأمون فى ثانى عشره وغدا فى الثالث عشر الى الأمين فى قصره وأخرجه منه محبوسا

خاف كبار الابناء تقدم على بن عيسى فقام محمد بن أبى خالد وقال أيها الناس ما أدرى بأى سبب يتأمر على بن الحسين علينا ما هو بأكبرنا سنا ولا أكرمنا حسبا ولا أعظمنا منزلة وانى أولكم نقض عهده فمن كان على رأيى فليعتزل معى وقام أسد الحربى ودعا من معه من الحربية الى القيام بأمر محمد وفكه فتأثر الأبناء من هذه الاقوال وثاروا على الحسين بن على فاسروه ودخل أسد الحربى الى الأمين ففك قيوده وأقعده فى مجلس الخلافة وأتى الأمين بالحسين بن على فلامه على ما كان منه مع احسانه اليه والى أبيه وأخيرا عفا عنه ولكن ذلك لم يفد فانه بعد العفو حاول الهرب من بغداد فادرك وقتل

هذه حال الاضطراب فى جند الأمين أما جند المأمون فكان على العكس

من ذلك كان هادئا منتظما لا تزيده الايام الا قوة — انقسم الى قوتين قوة مع هرثمة بن أعين تريد بغداد من جادة المشرق وقوة مع طاهر بن الحسين تريد بغداد من جادة الاهواز والبصرة

ذهب طاهر الى فارس فاستولى عليها بعد أن أوقع بعاملها محمد بن يزيد المهلبي وقعة شديدة بسوق الاهواز وقتل محمد بن يزيد وكان ترتيب جند طاهر فى مسيره وحربه حائزا الغاية من النظام والاحتراس فضلا عما حازه من الاسم الكبير الذى يفت فى الاعضاد

أقام بفارس مدة أنفذ فيها العمال الى الكور وولى على اليمامة والبحرين وعمان مما يلى الاهواز ومما يلى عمل البصرة ثم سار متوجها الى واسط فجعلت المسالح والعمال تتقوض مسلحة مسلحة وعاملا عاملا كلما قرب منهم طاهر تركوا أعمالهم وهربوا عنها حتى قرب من واسط فهرب عنها عاملها قائلا انه طاهر ولا عار فى الهرب منه . دخل طاهر واسطا ومنها وجه قائدا الى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهادى فبادر الى خلع الأمين ومبايعة المأمون وأرسل بذلك الى طاهر فتم له ما بين واسط الى الكوفة وأنفذ كتب التولية الى العمال وكذلك بايع للمأمون أمير البصرة وهو المنصور بن المهدى وكان ذلك كله فى رجب سنة ١٩٦

ثم سار طاهر الى المدائن فاستولى عليها من غير قتال

فى تلك الاثناء حصل فى الحجاز ما زاد المأمون قوة والأمين خذلانا ذلك أن داود بن عيسى بن موسى كان عاملا للأمين على مكة والمدينة فلما بلغه ما فعل الأمين من خلع المأمون وأخذه الكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة

وتمزيقهما جمع حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على ما فى الكتابين من الشهود وكان داود أحدهم فذكرهم بما كان الرشيد أخذ عليهم من العهود أن يكونوا مع المظلوم من ولديه عن الظالم وأخبرهم أن محمدا كان الذى قد بدأ بالظلم فخلع أخويه وبايع لابنه الصغير لذلك رأيت خلعه وأن أبايع للمأمون فأجابه الى ذلك أهل مكة وفى ٢٧ رجب سنة ١٩٦ نادى داود فى البيت الحرام بخلع الأمين وبيعة المأمون ثم كتب الى ابنه سليمان وهو خليفة على المدينة يأمره أن يفعل بها فعل أهل مكة ففعل . ولما تم ذلك سار داود بنفسه الى مرو وأعلم المأمون بما تم فى الحجاز فسر المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب الى أهل الحجاز كتبا يعدهم فيها الخير ويبسط أملهم وأقر داود على ولاية الحجاز فعاد مغذا ليدرك الحج ومر وهو عائد على طاهر بن الحسين فوجه معه يزيد بن جرير القسرى واليا على اليمن وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن الى بيعة المأمون فأجابوه

اجتمعت جيوش طاهر وهرثمة حول بغداد وحوصرت من ثلاث جهات فنزل هرثمة نهر بين وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الانبار ونزل المسيب بن زهير قصر رقة كلواذى . وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات واحتفر الخنادق وجعل يخرج فى الايام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمى بالعرادات من أقبل ومن أدبر ويعشر أموال التجارة ويجبى السفن وبلغ من الناس كل مبلغ

أحس محمد بالضيق ومنعت عنه الاموال فأمر ببيع كل مافى الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها لاصحابه فى نفقاته